

# میکو کاواکامی

Shortlisted

The  
2022  
International  
Booker  
Prize

## الجنة

Telegram:@mbooks90

ترجمة:  
زوینة آل تویہ

روایت

دار الآداب



## الجنة

ميكو كاواكامي / رواية يابانية

ترجمتها عن الإنكليزية: زينة آل تويه

الطبعة الأولى عام 2024

ISBN 978-9953-89-751-6

Copyright © 2009 by Mieko Kawakami

Original Japanese title: Hevun

Original publisher: Kodansha Ltd

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع



للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة

موقعنا [www.daraladab.net](http://www.daraladab.net)

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

[info@daraladab.net](mailto:info@daraladab.net)

[rana.adab@gmail.com](mailto:rana.adab@gmail.com)

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

## الفصل الأول

ذات يوم في أواخر نيسان، بين الدروس، فتحت مقلّمتي لأجد بين أقلام الرصاص وُزينةً مطويةً على شكل مثلث.

بسطتها لأقرأ ما فيها.

«يجدر بنا أن نكون صديقين».

ذلك هو كل ما أنبات به الوريقة. حروفٌ دقيقةٌ كعظام سمكة صغيرة، كُتبت بقلم رصاص كئاس.

بسرعة طويتها وأعدتها إلى المقلّمة. تنفّست نفساً طويلاً وترثّيت قبل أن أجيل نظري، حوالي الغرفة، بما أمكنني من اللامبالاة. كانت ثلة الزملاء نفسها تُهزج وتتصايح في الفسحة بين الدروس. سعيت إلى تسكين روعي فتشاغلت بتسوية كتبي ودفاتري مراراً، ثم برّيت قلم رصاص على مهل. وما كاد يمضي وقتٌ طويلٌ حتى رنّ الجرس مؤذناً ببدء الحصة الثالثة. صرّت قوائم المقاعد على الأرض. دخل المعلم إلى الغرفة وبدأ الدرس.

لا ريب في أن الإشعار بالوريقة كان خدعة، بيد أنني جهلت سبب إتيان هؤلاء الصبية دعابةً لطيفةً بعد كل هذه المدة. تنهّدت في سرّي واستكنت إلى الجهل المعتاد.

ما وُضع في مقلّمتي كان هو الإشعار الأول فحسب. ثم ألصقت إشعاراتٍ أخرى بباطن طاولتي حيث أمكن يدي أن تمسّها بيسر. كلّما وجدت إشعاراً اقشعرّ جسدي. نظرت حوالي الصفّ مُحترِزاً من أن يراني أحدهم، فلطالما شعرت بأنهم يراقبونني. اعتراني قلقٌ غريب، وقد جزّث في أمري وما عرفت كيف أتصرّف.

«ما كنت تصنع البارحة عندما أمطرت؟»

«لو استطعت أن تجوب البلدان، فإلى أي بلادٍ سترحل؟»

ورينقاتٌ بحجم بطاقاتٍ بريديّةٍ كُتبت عليها أسئلةٌ سهلة، وكنت ألوذ بغرفة الحفام

لقراءتها. كنت سأرميها لولا أنني ما عرفت أين أرميها، فأنتهيت إلى رصها وراء غلاف مفكرتي داكن الزرقة.

لم يتغير شيء بعد مجيء الإشعارات.

في أكثر الأيام كان نينوميا والآخرين يجبروني على حمل حقائبهم، ويركلوني كأن ما يفعلونه أمر تافه، ويضربون رأسي بآلات التسجيل، ويكرهوني على العدو. إلا أن الإشعارات كانت لا تني تصل، وصارت الرسائل أطول. لم يظهر اسمي عليها ولم ثوق، ولما أمعنت النظر في الخط، فكرت في أن من كتبها لم يكن نينوميا ولا غيره من الصبية، وإنما شخص آخر. غير أنني أدركت أن هذا ما كان إلا ظناً أحقق، فصرقته عن عقلي ظنوني الأخرى، وساء حالي.

ومع ذلك، أصبح البحث عن ورنيقة جديدة كل صباح عادتي الصغيرة. وقد شرعت أبكر في المجيء حيث لا أحد في الصف، والمكان هادئ، وثقة رائحة زيت خفيفة في الهواء. أسعدتني قراءة تلك الرسائل الصغيرة. على أنني لم أغفل قط أن ذلك قد يكون فخاً من الفخاخ، لكن شيئاً ما في تلك المكاتيب أشعرتني بالأمان، ولو لوقت قصير، مع معاناتي كلها.

في مطلع أيار، قبل العطلة بقليل، أتاني إشعار يقول «أود أن ألقاك فلنتقابل بعد المدرسة. سأكون هناك من الخامسة إلى السابعة». وقد أرفق به تاريخ وخارطة ميسرة مرسومة باليد. سمعت خفق قلبي يضج في أذني. قرأت المکتوب مراراً حتى كدت أرى الكلمات أمامي، وإن أغمضت عيني. أقمت طيلة النهار مفكراً في ما يجب أن أفعل ولم يشغلني شيء آخر في أثناء الفسحة حتى أوجعني رأسي وقلت شهوتي للطعام. لم أشك في وجود نينوميا والآخرين بانتظاري هناك عندما أصل، متأهبين لضربي ضرباً ما خبرته في حياتي. وعندما يرونني هناك سيحيطون بي ليطيب لهم لعب ما استجد من ألعابهم للنيل مني. وسيشتد الأمر ويسوء.

شق علي نسيان الأمر.

ولما حل اليوم الموعود لم أستطع فعل شيء لأهتئ من روعي. وطوال اليوم في

الصف لبثت أراقب نينوميا ورفاقه ما أمكنني، ولم أستبن تبذلاً كبيراً في تصرفاتهم، إلى أن لاحظني أحدهم، وقال «إلام تنظر يا هذا؟» ورماني بنعله، فأصاب النعل وجهي ثم وقع على الأرض. أمرني بالتقاطه ففعلت .

في نهاية اليوم، أخذ مئي الغضب كل مأخذ حتى شعرت بالغثيان. وما إن انتهت الحصة الأخيرة حتى كنت أعدو طوال الطريق إلى البيت. وبينما كنت على هذه الحال سألت نفسي إن كنت سأذهب حقاً، وعجبت لأمرى، إلا أنني مهما أُمعنت في الأمر لم أتيقن من شيء. لقد ساورني شعورٌ بأن ما أختار فعله ينقلب خطأ.

عندما رأني ماما داخلاً البيت حيثني وهي جالسة على الأريكة ثم عادت إلى مشاهدة التلفاز. رددت التحية. في التلفاز كان صوت يقرأ نشرة الأنباء. وكان ذلك هو الصوت الوحيد في البيت. كل الغرف كانت هادئة كالمعتاد.

قالت ماما «ظللت أطهو طوال النهار».

تناولت علبة عصير ليمون هندي من الثلاجة وملأت كأساً بالعصير وشربته على منضدة المطبخ. رمقتني ماما وطلبت مئي أن أشربه على مائدة الطعام. بعد قليل، سمعت صوت تقليم أظافر يد أو قدم.

«أتعنين طهو العشاء؟»

«إهه. ألا تشم رائحته؟ إنه أول طبق لحم مشوي أعددته مربوطاً بخيط»!

سألت نفسي عفاً إذا كان أبي سيعود إلى البيت، لكنني عذمت على ألا أسألها.

«أتود أن تأكل باكراً؟»

«كلاً. سأقصد المكتبة حتى حين. سأكل فيما بعد»

في بلدي شارع كبير تحفه الأشجار وتقوم على جانبيه مجموعة من المباني.

هذا هو الدرب الذي أسلكه إلى المدرسة. لكي أصل إلى مكان اللقاء علي الانعطاف يساراً في منتصف الشارع المحفوف بالأشجار، ومنه إلى شارع جانبي يُفضي إلى أرض رملية لا تكاد تصلح لمتنزه.

خرجت من البيت في الساعة الرابعة وعندما وصلت لم يكن هناك أحد. اغتنمت الفرصة لأستريح. كان هناك ما يشبه مقعداً من إطارات نُصبت على أطرافها، وخوِث من الإسمنت بينه وبين الإطارات صندوق رمل لم يكن أكبر من حَشِيَّة، امتلأ بأغلفة حلوى وأكياس بلاستيك.

ميّزْتُ في تلك القمامة قطع برازٍ جافٍ لكلابٍ أو قططٍ وقد التصق الرمل بها فبدت مثل لقيمات تمپورا. جرّبت عدَّ اللقيمات، إلّا أنّ قطعاً جديدةً جعلت تظهر. يبدو أنّ صندوق الرمل قد امتلأ بها. ثم صعقتني الفكرة. إنّ من دعاني إلى هذا المكان قد يُكرّهي على أكلها. التهب حلقي. أفرغت رئتي محاولاً إبعاد طعم الفضلات، بيد أنّ الفكرة وحدها أشعرتني بالغثيان.

كان فم الحوت كبيراً يسع شخصين بحجمي. وقد تآكل طلاء هيكله حتى صُفب تحديد اللون الذي كان عليه. علّم الناس ظهره ورأسه بعلامات ثابتة. وكانت قطعة الأرض تلك تقع في ظلال مساكن قديمة، وأرضيتها سوداء تشبه عَفْناً.

تزجّيةً للوقت المتبقي عدت إلى الطريق المحفوف بالأشجار. جلست على مقعدٍ من معدن، وشهقت وزفرت. وفكّرتُ في أنّي أخطأت بالمجيء إلى هنا، لكنني إذا لم أفعل ولم ينل نينوميا والآخرين مرادهم فسأجازي شرّ الجزاء. وقلت لنفسني إنّ ما أفعله أو لا أفعله سيّان، فلن يتغيّر شيء.

زفرتُ مرّةً أخرى ورفعْتُ ناظري فاعتراني دوار. منذ عهد قريب، لم تكن الأشجار إلّا جذوعاً سوداء، والآن نُقت أوراقها وكلّما هبّت الريح أمكن المرء سماع حفيفها. خلعت نظارتي وعرّكت عيني، ثم عاينت الطريق مرّةً أخرى. على العادة، كان العالم مسطحاً لا عمق له. تراءى المنظر لعيني في صورة بطاقة بريدية، ولما طرفتُ تلاشت الصورة وحلّ محلّها منظرٌ جديد.

بعد حين، وكنت ما زلت عاجزاً عن التفكير، عدت إلى مكان اللقاء. رأيت فتاةً تجلس على الإطارات مؤلّيةً ظهرها لي. فتاةٌ في زيّها المدرسي. تلك كانت مفاجأة. قلبت طرفي في المكان باحثاً عن أحدٍ آخر، وما من إشارة دلّت على ذلك.

بحذرٍ دنوت منها. ولما وقفت قرب فم الحوت سمعت هي وقع خطاي فالتفتت نحوي. كانت تلك كوجيما. من صفّي. وقفت ونظرت إلي متعجبة قليلاً، فنظرت إليها وتعجبت أنا أيضاً.

«الرسالة»؟

كانت كوجيما قصيرة القامة سمراء البشرة، دائمة الإحجام عن الكلام في المدرسة. وكان قميصها متفضّناً ولباسها المدرسي قديماً. ما كانت تقف باستقامة قط. شعرها كثيفٌ فاحم السواد، لا يسترسل لخشونته، أشعث تنتشر خُصله في كلِّ اتجاه. تحت أنفها بقعة سوداء، كأنها وسخٌ أو لعلها شعرة، طالما عرّضتها للسخرية. وكانت الفتيات في الصفّ يضايقنها لفقرها وقذارتها.

ضحكت كوجيما، وتبسمت حائرة، وقالت «ما حسبتك ستأتي، أكان الأمر مربياً لك»؟

عجزت عن قول شيء فhezزت رأسي نافياً. وقفنا صامتين وقتاً.

قالت كوجيما «اجلس». أومأت برأسي وحاولت أن أستوي جالساً على الإطارات. «ليس عندي ما أقوله. ارتأيت أنه يحسن بنا، نحن الاثنين، أن نتكلم. وأصدقك القول إنني شعرت بأنّ كلينا بحاجة إلى ذلك. أحسب أنني أشعر بذلك منذ مدة».

تلعثمت كوجيما في الكلام، وقد أدركت أنها كانت تلك أوّل مرّة أسمع صوتها. أوّل مرّة رأيت وجهها من كُتب. وأوّل مرّة كلّمت فتاةً هكذا. ابتلّت راحتي ونضح جسدي بالعرق. لم أعرف جهةً آمنةً أوّلي وجهي شظرها.

«أسعدني مجيئك».

لم يكن صوتها مرتفعاً ولا منخفضاً، لكنّه كان حازماً، كأنّ في قلبه ما يشدّ بعضه بعضاً. أومأت لها برأسي مراراً. لاحظت كوجيما ذلك واطمأنت.

«أتعرف اسم هذا المتنزه»؟

hezزت رأسي نافياً.

«متنزه الحوت. أترى؟ الحوت هناك. أحسب أنني الوحيدة التي تدعوه بهذا الاسم». ضحكك. توهّمك أنني أتلفظ بالاسم. متنزه الحوت.

«كما قلت، منذ مدة وأنا أريد أن نتحدّث، ولذلك كتبت إليك تلك الرسائل. ما حسبت أنك ستأتي، وقد عجبك من مجيئك». وأنشأت تفرك أنفها وتحدّث أسرع من ذي قبل.

أومات براسي موافقاً.

قالت وهي تنظر إليّ «أود أن نصبح صديقين. أعني إن راقك ذلك».

لم أفقه ما قالت، لكنني وافقت. وقد تنازعتني الظنون؛ فما معنى أن نصبح صديقين؟ وما ينبغي لصديق أن يفعل؟ لم أجرو على السؤال. سال العرق على ظهري. ابتسمت كوجيما. أبهجها جوابي حقاً. تنفّست، وقالت لي إنها سعيدة. ثم نهضت من مقعد الإطارات ونفضت ثورتها من الخلف بيديها. وقد تغصّنت ثورتها بغضون كبيرة قطعت تضاعيف الثوب، وانتفخت جيوب سترتها بما بدا أنه مناديل ورقية.

«سعادتين». ظننت أنها تنهّدت، لكن تبشّمها لم يتبدّد وهي تنظر إلى قدميها. وكنت أسأل نفسي سعادة ماذا؟ أردت سؤالها عمّا قالت، بيد أنني لم أكن على يقين من توقيت السؤال ولا من كيفيته، فلم أنتهِ إلى قول شيء.

«هل يمكنني أن أكتب إليك رسالة أخرى؟»

قلت وقد جشّ صوتي وسخن وجهي «أجل».

«وأعطيك إيّاها؟»

أومات براسي قائلاً «أجل».

«هل ستكتب إليّ أيضاً؟»

قلت «أجل». هذه المرة تكلمت بنبرة مناسبة. يا له من فرج!



مزح نينوميا ضحك كل من سمعه. نال دائماً المرتبة الأولى في الصف، وحظي بدروس متقدمة بعد المدرسة، في حين جاهدنا نحن الباقين في إتمام واجباتنا الدراسية. لم يستطع أحد منا مجاراته. حتى المعلمون لم يتمكنوا من ذلك.

«أسرع».

وقفت مشلول الحركة صامتاً.

«أنت لا تتعلم أبداً، أليس كذلك؟ كم سنة ونحن نفعل هذا؟»

رفع نينوميا يديه باشمئزاز. استغرق رفاقه في الضحك، ولم يكتفوا قط. عندئذ رأيت موموز، الذي وقف عاقداً ذراعيه، خلف الحاجز الذي شكّله الصبية بأجسادهم. ظهر موموز في المدرسة الإعدادية. ومثل نينوميا، أحرز علامات جيدة، وقد علمت أنهما حضرا الدروس المتقدمة نفسها بعد المدرسة. لم أبادل موموز الكلام قط. كان يرافق نينوميا دائماً، ولا يكثر الحديث، ولم أره مرة غاضباً مثل الفتية الباقين. ولأسباب لم أفهمها، كان يتفّرج على حصص الرياضة من المدرجات. لم يسع أي أحد إلا أن يصفه بالوسيم، وإن لم يُضاهِ نينوميا في الوسامة، وكلاهما كان أطول مني بقدر أربع بوصات في الأقل. لم يكن يبدو في مخيا موموز ما يفصح عما يجول في فكره. وما كان تنفّزه علي يظهر صراحة. كان يقف جانباً فحسب، عاقداً ذراعيه ومحدقاً.

قال نينوميا «عندنا أشغال نقضيها، سيكون علينا الاحتفاظ بتحفتك الفئية ليوم آخر. استعمل أصابع الطباشير الثلاثة كلها إلى نهايتها ثم تستطيع الانصراف».

أمر نينوميا الآخرين بوضع أصبعي طباشير في أنفي. لوّح بالأصبع الثالثة أمامي مثل سمكة سردين، وقال «هيا أيها الأحول، أين كلمات الرجاء والشكر؟» وركل ركبتي بفشط قدمه.

لقد حرص نينوميا ورفاقه على عدم ترك أثر علي إذا ركلوني أو لكموني أو دفعوني. وكلما عدت إلى البيت ولم أر كدوماً على جسدي، عجبت من أفانين الحيل هذه وأين تعلموها.

كانوا إذا ركلوا ركبتي وفخذي، لا يعاودون ركل الموضع نفسه. رفس أحدهم صدري كأنه يختبر مرونته. دفعوني، ورطموني بالحائط. ترنحت واصطدمت بطاولة. قلت لنفسي إن ذلك يحدث على الدوام. إن هذا ليس بذي أهمية. إنه يحدث. انتظرت حتى قضي الأمر.

جذبوا شعري ووضعوا إصبع الطباشير في أنفي وأرغموني على أكل الإصبع الأخرى. عضضتها بأسناني الأمامية.

تفرج نينوميا ورفاقه مستغرقين في الضحك.

إلى الآن، أجهزث على ابتلاع ماء بركة ومرحاض، وازدراء سمكة ذهبية، وبقايا خضروات من قفص الأرانب، لكن هذه كانت أول مرة أكل طباشير. لم يكن لها طعم ولا رائحة. صاحوا بي لأسرع في المضغ. أغمضت عيني وكسرت إصبع الطباشير داخل فمي قاصراً فكري على المضغ، لا على ما أمضغ. سمعته يتهشم. خدشت القطع المتكشرة باطن وجنتي. كان عملي هو الاستمرار في تحريك فكي والابتلاع، فابتلعت. كست الطباشير باطن فمي.

ابتلعت الأصابع الثلاثة كلها. صاح أحدهم «ليموناده! ليموناده!» وجلب لي كوب بلاستيك ملطخاً بطلاء ومليناً بسائل حليبي اللون قذر. مسحوق طباشير مذاب في ماء دفعوني إلى الحائط وضغطوا الكوب على وجهي، فتجزعت كل ما فيه. وبينما كان السائل ينزلق شاقاً طريقه في حلقي شعرت برغبة في القيء، وسرعان ما قئ كل شيء. دمعت عيني وسال المخاط من منخري، وجعلت أتھوُع مثكناً بيدي على الأرض. سألني صبي عما أفعل وارتد على عقبه، ثم أخذ يصفق ويصخب. مرغوا وجهي في القيء، وقالوا «نظفه». ابتسم الجميع وضحكوا.

كان ذلك أول يوم أكتب فيه كوجيما.

ما كاتبث أحداً من قبل، وقد جهلت ما أقول وكيف أقوله، إلا أنني سعيث إلى كتابة ما خطر ببالي بقلم الرصاص الذي بريتة حديثاً، ثم عدت فمحوث معظمه، حتى كان لي في آخر الأمر ما استطعت إبقاءه. مهما سعيث، فلم أستطع كتابة أكثر

من صفحة. كتبنا أموراً غير مهمة، وبمرور الوقت فهم أحدنا الآخر. ولكي لا يراني أحد أتيت إلى المدرسة قبل الجميع وألصقت ورنقتي داخل طاولة كوجيما. وفي صباح اليوم التالي، أخذت ورنقتها وقرأتها في الحمام. لم نتبادل كلمة عن المدرسة ولا عمّا نلقاه من تنفّر، وما جعلنا ذلك قاعدةً بيننا.

كلّما فرغت من كتابة رسالة خلعت نظّارتي وأدّيت الورقة من عيني اليسرى لأقرأ ما كتبت. وقد أكرت من قراءتها حتى اعتراني صداغٌ في ناحيةٍ واحدةٍ من رأسي. كانت إحدى عيني حواء.

كلّ الذي جاهدت عيني اليمنى لرؤيته لم يكن إلّا جزءاً يسيراً ممّا رأيته عيني اليسرى. وكان كلّ ما تراه يبدو مشوّشاً متضاعفاً، لا قرار له. وقد جهدت في لمس الأشياء وإن كانت أمام ناظري، إذ ما أثبت حتى أضيّع موقعها. وسيّان إن لمستها بأطراف أصابعي أو بيدي كلّها. ما أيقنت قط أنّ ما ألمس هو الشيء الصحيح ولا إن كنت ألمسه على الوجه الصحيح.

أهلاً كوجيما. اليوم قرأت رسائلك مزات كثيرة. أصحيح أنّك تستعملين قلم رصاص كباساً؟ أمّا أنا فاستعمل قلماً عادياً.

ردّاً على سؤالك الأخير، أحسب أنّ هوايتي هي القراءة لكنني لا أعلم إن كنت أؤثر كتاباً أو صنفاً من الكتب.

نتحدّث قريباً.

أهلاً أهلاً. شكراً على رسالتك. اليوم أمطرت بغزارة. كان صوت وقع المطر صاخباً على مظّلتني حتى ظننت أنّها ستتمزّق. في طريق عودتي إلى البيت، وبمحاذاة بناية يوكوياما، عبرت شاحنةً ضخمةً فوق بركةٍ فرشني الماء. كأنّ شيئاً خرج من رسوم هزليةٍ يابانية. لو كان الأمر كذلك، فما الذي تظنّ أن تقول فقاعة الكلام؟ لعليّ أكتب الرسائل برداءةً لكلي أهواها. إنني تواقّةٌ إلى قراءة رسالتك القادمة.

مرحباً. إنّه منتصف الليل والريح تعصف عصفاً. أعتقد أنّ الكتابة شاقّة. لعليّ أشقّ من الكلام. قد أحسّن إذا تمزّنت. إنني أسعى جاهداً. جلست إلى طاولتي أكثر من

ساعة وهذا هو كل ما كتبت. نتحدث قريباً.

أهلاً مرةً أخرى. شكراً على رسالتك. عادت امتحانات منتصف الفصل وأنا في حال مُزربة. نجحت بشق الأنفس! لن أسالك عن علاماتك، لكنني على يقين من أنك أبلت بلاءً أحسن مني. أوه بلى، فكرة فقاعة الكلام مُسلية جداً. إذا أقبلت شاحنة أخرى مسرعة ورشّنتني بالماء مرةً أخرى فذلك ما سأقول!

إنها تجربتي الثانية لكتابة هذه الرسالة اليوم. لم تنجح المرة الأولى فتركت الكتابة وبدأت في الحياكة. ليست بالشيء المتقن، إنما خياطة يسيرة فحسب. أردت حياكة غطاء وسادة، ولم تكن عندي وسادة، فاستعملت ما تيسر لي لتطريز أشكال زهور صغيرة. وإنني لأهوى خياطة أشياء كهذه. وعندي الآن هويتان؛ الكتابة والحياكة. كم أتوق إلى قراءة رسالتك التالية!

أهلاً. كيف حالك؟ قلت في رسالتي السابقة إنه يشق عليّ التعبير عن رأيي كتابةً. أحسب أنني أعرف السبب. إنه قلبي الرصاص.

أحب أقلام الرصاص بدرجة 6 ب لأنها لا تنكسر. وبينما كنت أكتب أدركت شيئاً. لغتك تذكّرني بقلم رصاص 6 ب. لست أدري إن كان لذلك معنى، لكن كلماتك ناعمة وخشنة في الوقت نفسه. لا تكاد تنكسر معذرةً إن كان قلبي هذا لا يعني شيئاً. لقد فكّرت في أنني سأجرب ليس إلا.

الساعة 8:30 ليلاً. عليّ أن أنجز واجب الجغرافيا. إلى لقاء.

أهلاً أهلاً، مساء الخير حسناً، أحسب أن يكون الصباح قد انبج وأنت تقرأ هذه الرسالة.

ما حال الطقس عندكم؟ إنها تمطر هنا. في العادة لا تمطر في أيار بهذا القدر. أجل، إنها تمطر.

لكن الأهم هو سؤالي لك أكثر من مرة عن الكتب التي تحبها. أهو سز كبير؟ لم أقرأ كتاباً كاملاً للتسلية، وما سألتك إلا لفضول عندي. لقد قرأت. . . لنرى. مهلاً، أعتقد أنني في المدرسة الابتدائية قرأت كتاباً في تاريخ الصين كان على رف كتب الإعارة.

لا أصدق أنني تذكرت ذلك تَوَّأ. لو لم أكتب إليك هذه الرسالة، لما تذكرت ذلك البتَّة.

وعلى ذكر الكتب، أريد أن أسالك: ما الموضوعات التي تحبّ قراءتها؟ نسيت أن أسالك من قبل. أتحسب أن القراءة مسلية؟ كفاني قراءة في حصة اللغة، لكن خبّرني إذا وجدت شيئاً جديراً بالاهتمام. بيتنا يُشبه تماماً ما قلّته عن بيتكم. مضجّر جداً. إنّه لأمر غريب، لكنني عندما لا أفعل شيئاً يعتريني شعورٌ بمصارعة شيء ما. إنني عالقةٌ في. . . صراع. شعورٌ لا يفارقني أبداً، حتى وأنا في الفراش، أو أتمشّي في الأنحاء. بقيت سنة ونصف سنة على انقضاء الدراسة الإعداديّة، وإذا سار كل شيء بسلاسة فسندرس ثلاث سنواتٍ أخرى في المدرسة الثانويّة. وسنظلّ نفعل الشيء نفسه سنوات. ألا تعتقد أن ذلك غريب؟ إنني أعتقد كذلك.

كيف سيبدو المستقبل في اعتقادك؟ كثيراً ما أفكّر في هذا الأمر. ماذا لو انتهى العالم في العام 1999 مثلما يرّدد الجميع؟ وإذا لم ينته فلن يتغيّر شيء، صحيح؟

مهلاً، عندي رأي. لك أن تُخبرني إن لم يَزُقْكَ. لا أودّ البوح به لكنني سأقوله. ما رأيك أن نلتقي مرّةً أخرى في يوم الأربعاء الثاني من الشهر القادم؟ لقد كان يوم الأربعاء عندما التقينا ذلك اليوم في متنزه الحوت. لعلنا نحسبه يوماً لنا. إذا لم يرقك الرأي فاكتمه في نفسك. أمزح فقط. يمكنك إخباري. راسلني.

مرحباً. اليوم كألّه صيف. لا أصدق أن أيار قد انقضى.

شكراً على رزمة الأوراق. إنّها رائعة. سأستعملها بعد نفاذ الأوراق التي أستعملها الآن.

شكراً لموافقتك على اللقاء عند دَرَج النجاة من الحريق. إنني عاجزٌ عن التعبير، غير أنني أحسب أننا سنرتاح أكثر هناك في الأعلى. هدوءٌ ونسيمٌ عليل. لن يُزعجنا أحد. ما عليك إلا أن تركبي المصعد فيحملك إلى الأعلى. افتحي الباب الذي إلى يمينك وسترين السلالم. ستفهمين ما أقصد. سأكون بانتظارك هناك يوم الأربعاء، بعد أسبوعين من الآن. إنني أتطلّع إلى ذلك. أراك قريباً.

فكّرت في كوجيما تفكيراً مختلفاً تماماً.

لم يكن ذلك لأنه أمرٌ جديدٌ عليّ، بل لأنه شقّت عليّ كثيراً رؤية الفتيات في صفّنا وسماعهنّ وهنّ يتنقرن عليها، وذلك كضيقني بمعرفة أن كوجيما كانت تراني عندما يتنقر الفتية عليّ. ما وددت سماعهنّ، لكننا كنّا جميعاً في الغرفة نفسها، وما قدرت على صمّ أذني عن سماعهنّ. وما وددت رؤيتهنّ، لكنني لم أستطع إغماض عينيّ.

لم أكن في رأيهم إلا «الأحول». لطالما نادوني وأمروني بقضاء حاجاتٍ عرضيّة لهم، أو طرحوني أرضاً، أو أكرهوني على العدو في المضمار في أثناء الفسحة وبقوا هم بالداخل يتفَرّجون عليّ. وكعادة نينوميا ورفاقه، فقد سخروا مني وهم يرقبونني من النوافذ. أطلقوا على كوجيما لقب «النفاية»، وقالوا إن رائحتها كرائحة السمك بل أسوأ. سمعتهم يأمرونها بالذهاب إلى المخزن. رأيتهم يركلونها مثلما ركلوني. ذات مرّة رأيتهم يصيحون بها «حان وقت الاستحمام!» ثم غمسوا وجهها في حوض الأسماك.

في مكاتيبها بدت كوجيما مفعمةً بالنشاط والحيويّة، فتاةً مختلفةً كلّ الاختلاف عن الفتاة التي أراها في الصفّ. كلّما شهدت ما يحدث لها اعتراني ألمٌ حادٌ في صدري، ولكن مهما اشتدّ الألم لم أستطع فعل شيء. وقد شئت ألاّ تعرف هي برؤيتي ما يحدث لها. كان عليّ أن أشرح بوجهي متظاهراً بعدم رؤية شيء.

في ذلك العام، كالعام الذي سبقه، حضّر صفّنا لمسابقة الإنشاد والاجتماع الذي تلاها.

ألقي عددٌ من الحصص استعداداً لليلة الموعودة، فسنحت فرصةً لنينوميا ورفاقه لتشديد تنقُرهم عليّ. بعد المدرسة وفي القاعات وفي فناء المدرسة، امتلأت الأجواء بالإثارة، في حين بقيت على حالي، أنتمر لنينوميا ويركل رفاقه صدري. وفي الغداء، كانوا يأمروني بابتلاع طعام لهم. اعتدت دائماً تناول غدائي وحيداً، وكذلك كوجيما.

«يا رفيق، عينك بحاجة إلى عناية». كان يوم السبت، بعد انتهاء الدرس. عدنا إلى الصفّ، وبدأ نينوميا ينقر رأسي بمسطرة. «لا تقلق، سأصلحها لك».

في أيّ يوم سبت معتاد، إن لم يكن التلاميذ في الأندية فإنهم يذهبون إلى

بيوتهم، لكن في ذلك اليوم، شُحح لنا بالبقاء في المدرسة والتمرن على المسابقة أو إعداد زي لها. أمرني نينوميا بدخول الخزانة التي احتفظنا فيها بغذاء التنظيف.  
«وجودك يُغثي النفس».

جلس إلى طاولة، وضع رباطاً مطاطياً أسود بين شفتيه، ورفع شعره في هيئة ذيل حصان.

«ألا تغثي نفوسكن من وجوده»؟

لشدة الحرج تضرجت وجوه الفتيات غير المشهورات اللاتي خاطبهن، فتبسمن وأومان برؤوسهن.

«أفهمت القصد يا أحول؟ لا أحد يريدك حواليه».

ربطوا يدي بحبل من حبال القفز، وحشوا فمي بخارقة، ودفعوا بي داخل الخزانة.

قال نينوميا «إياك أن تهرب، وإلا بقيت هناك طوال الأسبوع».

دفعني أحدهم لأستقر داخل الخزانة ثم ضفّق الباب صفقاً.

لم تكن تلك أوّل مرّة لي داخل خزانة، وما استغربت الهواء المغبر الخانق ولا الظلام الدامس. كلّما وقع شيء من هذا طفق عقلي يعدّ ويحصى فلا يشغله شيء آخر. وكلّما بلغت المئة عدت إلى الواحد لأبدأ من جديد. ما سألت نفسي قط عن المئات التي أحصيتها ولا عمّا مضى من الوقت. جهدت من أجل صرف فكري وشعوري عن كلّ شيء وما تركت عقلي يهيم، فشغلته بالأعداد وبتريديدها. بيد أنّي، طوال الوقت، كنت أسمع أصوات زملائي، وهم يتحدثون ويتذربون على الأغاني فاختلطت أصواتهم بالصوت الذي في رأسي وهو يعدّ عدداً تلو عدد.

لم أعرف كم من الوقت بقيت هناك، لكنني بعد حين فطنت إلى الصمت المخيم على الغرفة. ألّحت بي حاجة إلى الحقام، واقشعرت جسدي لحبسها. كظمت نفسي وأصخت السمع. لا شيء. كأنّ ساعة مرّت منذ حبسي في الخزانة، أو ربّما ساعتان أو أكثر. ما عرفت الوقت.

احتجت إلى الثبؤل إلى حد مؤلم. فكُرت فيما قد يقع من أحداث شنيعة إذا رأي نينوميا خارجاً وكدت أتبؤل من فوري، لكنني يجب أن أخرج. نقرت باب الخزانة بطرف قدمي. ثم ركلته بقوة فانفتح وصرُ صريراً. ضيقت عيني لمرأى الضوء. كان الصف مهجوراً. مشيت على أطراف أصابعي في الرواق ونظرت من النوافذ إلى الساحة. بعض الصبية الذين عبثوا في الصف خرجوا إلى الساحة وجعلوا يتقاذفون كرة ويتصايحون. أردت أن أعرف إذا كان نينوميا بينهم، لكنني لم أستطع.

طرحت عن معصمي حبل القفز ومشيت في الرواق الخالي إلى الحقام. جلست داخل حنجيرة من حنجيرات الحقام وزفرت محاولاً فك عقدة بطني. ما الذي سيحل إذا عرفوا بخروجي؟ ما الذي سيفعلونه بي؟ ألخ علي التفكير في الأمر. ونفد صبري. شعرت كأن قلبي سيخرج من صدري. ما اعتدت وطأة هذه الأسئلة قط. عساهم يرأفون لحالي إن قلت لهم إن حاجة ألحت بي لأقصد الحقام. لعل نينوميا قد نسي أمري وذهب إلى البيت. ذلك هو كل ما استطعت التفكير فيه.

صرفت فكري إلى شيء آخر، وأخذت أتخيل ما سيحدث في المرة القادمة عندما ألاقي كوجيما. أملت آمالاً عظاماً. ما بقي إلا عشرة أيام على يوم اللقاء. أخرجت مكتوبها وقرأته مرة أخرى. لم أقرأه كله، فذاك محال، بل اكتفيت بسطور راقنتي أكثر من غيرها. حملتها معي أينما ذهبت، مثلما فعلت منذ البداية، وقد دسستها في مفكرتي. وتركت بقيتها على رف كتبي في غرفتي، داخل حافظة القاموس. داومت على قراءتها كلما خلوت إلى نفسي في غرفتي.

لم أكن قد رأيت كوجيما في الصف لفا أدخلوني إلى الخزانة. تمئيت أن تكون قد وصلت إلى البيت بخير. تبدى لناظري شعرها الخشن فوجدتني أتذكر ما قالته لها الفتيات في أثناء التمرين على الإنشاد إن رائحة أنفاسها كريهة وأغلقت فمها بشريط لاصق. شعرت بوطأة أثقلت صدري. تذكرت كم استغرقت فتاة طويلة القامة في الضحك لفا نزعن الشريط اللاصق. بل إنني تذكرت أيضاً قول الفتاة «في الأقل أصبحت شفتاك نظيفتين الآن». تنهدت ووضعت المكاتب جانباً. سألت نفسي عما إذا شعرت كوجيما بهذا الشعور نفسه وهي تراهم يتنفرون علي. وقد شق علي السؤال

سمعت أصواتاً تقترب. من جاءوا دخلوا الحقام. كظمت أنفاسي وسكنت مكاني. استبدّ بي الذعر، لكنني بهدوء فتحت قفل الحجيّرة حتى لا يلاحظوا أنّه مقفول، ثم ضغطت الباب بيدي كي لا يفتح.

كانا صبيّين.

في البداية لم أعرفهما، ثم ما لبثت أن ميّزت أحدهما من مذهبه في الكلام وكان نينوميا. خفق قلبي خفقاناً شديداً حتى ظننت أنّ نينوميا قد سمعه. وسعيت إلى تهدئته واصطكّك أسناني. دارت أشياء كثيرة في رأسي. لم أستطع التنفّس بهدوء.

في الجانب الآخر من الباب كان نينوميا برفقة شخص آخر.

تكلم الآخر بصوت ضعيف جداً لم يكذّ يسقع. عرفت أنّه تلميذ آخر، لكنني لم أتبيّن من كان.

ضحك نينوميا، وقال «أجّد ما تقول؟ يا لك من خائب! افعل شيئاً مثيراً في حياتك».

بدا أنّهما أتيا إلى هنا للحديث، ولم يستعمل أيّ منهما الحقام. سمعت نينوميا يقول «كأنك ستتهتم». لمست غرابة في قوله لم أدرك كنهها. لم أدرك إنّ كان يتصرّف بلطف أم بلؤم.

أجابه الولد الآخر، لكنني لم أستبن الكلمات ولم أستبطن ما كانوا يناقشون. صرّ الصنبور. أحدهما غسل يديه. ضحك نينوميا مرّة أخرى.

ثم لا شيء. صمت.

أصخت السمع محاولاً معرفة ما يحدث.

قهقه نينوميا. داخل الحجيّرة، انقطعت صلتي بالواقع. أغمضت عيني وقلت لنفسني إنّ هذا لا يحدث، إنّني لست هنا، لا أحد هنا. وبعد حين، تلاشى صواتهما فأدركت أنّهما قد خرجا. دقيقة بقيت هناك. ولما أيقنت أنّهما لن يعودا عدوت إلى

الصف، ولما لم أر نينوميا هناك حملت حقيبتني ووليت هارباً.

أقبل الأسبوع الأول من حزيران وأدبر، وما لبث أن هلّ الأربعاء الثاني من الشهر قابلت كوجيما، مثلما وعدتها، في الطابق العلوي لسلام النجاة من الحريق. لقا رأتني حيثني ملوحة، فرددت التحية بمثلها.

أقلقني ما قد يعتريني من توتر، غير أنني لسبب ما لم أتوتر. شعرت بأننا عدنا إلى المكان الذي إليه ننتهي، مثلما التقينا في المرة الفاتنة. ما عرفت إن كان ذلك بسبب الرسائل، وإذا كان كذلك فالرسائل كانت أقوى أثراً مما تخيلت.

سألتني «هل تأتي إلى هنا كثيراً؟»

«أجل، ليس كثيراً جداً».

أشعرنا النسيم بالخفة. تبسّمت كوجيما. بدت على وجنتيها مسحة من تراب خفيف، وتغصن زيتها المدرسي بغضون كثيرة. في الظاهر بدا أنها هي كوجيما التي أراها في الصف. بدا شعرها الخشن كحيوان فوق رأسها. وقد انخفض حاجباها وتحتهما عينان صافيتان ترنوان إلي. ابتسمت. أرحنا رأسينا على الدرابزين وأخذنا نطالع المدينة. هب نسيم قوي فضحكت كوجيما أكثر. دندن صوث الريح وضجك كوجيما في أذني.

جلسنا على درجات مختلفة في السلم الخرساني وتجاوزنا أطراف الحديث. كان شعوراً طبيعياً جداً. كأننا نستطيع التحدث ساعات. رحنا وجئنا في سرد قصص صغيرة وافق بعضها بعضاً. انفرجت أساريري. وبدت كوجيما مرتاحة جداً هي أيضاً. جلبت في حقيبتني مفكرتي الخاصة بدرس اللغة نزولاً عند رغبة كوجيما.

«لا شيء متفرّد بها».

مدت يدها، وقالت «هيا، أرني».

قلت «لا شيء يستحق الرؤية. أعني أنك رأيت في رسائلي أسلوب في الكتابة». بيد أن كوجيما أرادت أن ترى أسلوب كتابتي للدروس.

ولما أخرجت المفكرة انتزعتهما كوجيما مئي. وبيدها الأخرى، أخرجت مفكرتها من حقيبتها وألقتهما في حجري.

«فلنتبادل».

خط يد كوجيما مثل خطها في رسائلها، حروف دقيقة بقلم رصاص كبّاس. وقد أكرت الكتابة في أمور شتى. أمسكت بمفكرتي بكلتا يديها وفتحتها كصحيفة أمامها، وأدنت وجهها لترى أفضل. تشاغلت بالمفكرة حيناً كأنها تقرأ حقاً، وبعدئذٍ شخصت ببصرها رافعة حاجبها بهزل، وقالت «آه، نعم . أحسب أنني فهمت الآن». أومأت برأسها بضع مرّات وشرعت في الضحك. ولما سألتها عما فهمت، قالت إنه سِرٌّ، ثم وقفت وتثاءبت فاتحةً فمها. كدث أرى باطن فمها كله. رأيت حمرة القانية فأشحت بوجهي.

بعيداً في السماء، دوى صوت الرعد فطال صمتنا. صاعقة، قالت كوجيما مُرددة المقاطع الثلاثة بوضوح. أراحت ذقتها على الدرايزين ثم أدارت عنقها ببطء شديد لتواجهني. صاعقة مجنونة، قلت.

قالت «مهلاً، أتذكر ما حصل منذ مدّة للستائر وكتب المكتبة . . . وخيط ممحاة السبورة؟ كيف قُصّت كلها؟»  
أجبت عفواً «أجل، أذكر».

في نهاية نيسان، عثر التلاميذ على آثار قُصّ وقطع في لوازم الصف وفي ما وضعوه من أشياء على طاولاتهم. وغداً ذلك موضوعاً مثيراً حتى حين. كأنه حدث منذ زمن طويل، لكنه لم يكد يمضي عليه شهران. في أوّل الأمر، وجدوا الستائر مقصوصة الأطراف، ثم رأى أحدهم ثقباً في طرف سلّة الثياب التي وضعت فيها الفتيات ثيابهنّ الرياضية، وبعد ذلك، رأوا القُص في أغلفة الكتب، وممحاة السبورة قد نُزع منها خيطها، وقُصّ نحو بوصة واحدة من شعيرات المكنسة.

كلّما وجد أحدهم دليلاً جُئ جنون التلاميذ. لم يُقَصّ أيُّ من هذه الأشياء قُصّاً كاملاً، بل كان القُص متعجلاً بطرف المقص، لم يزد على بوصة واحدة. وقد تشابه

القص فيها. ولما استمرّ الوضع على هذه الحال، استمات التلاميذ في العثور على الجاني، فما وجدوا برهاناً وما عرفوا من فعل تلك الفعلة. لم يكد يمرّ وقت طويل حتى انصرف الجميع عن الأمر، وفي أسابيع قليلة نسوه تماماً. أتذكر كم تملكني الذعر من أن يكذب أحدهم ويلقي اللوم علي. إلا أنه بقدر ما لازمني الأمر حينذاك، لم يخطر ببالي قط حتى ذكرته كوجيما.

«كان أنا من فعل ذلك».

لم أصدق، وقلت «أجّد ما تقولين؟ ما ارتاب أحد في أمرك».

«أعرف». هزّت كوجيما رأسها. حدّقت إلى طرف حذائها. «ألن تسألني عن سبب إقدامي على فعل ذلك؟»

«لم فعلت ذلك؟»

قالت ساخرة «لا أحد يجبرك على السؤال. لا جواب شاف عندي على كل حال. لا أعلم، غير أنني في بعض الأحيان فقط أقصّ الأشياء. ليس أي شيء فحسب. أشياء بعينها. عندما أقصّها أشعر بأنها أخيراً عادت طبيعيتها»

«طبيعية؟»

«أجل؟»

«أتريدين بذلك أنها تهذي من روعك؟»

«بل بالعكس».

«بالعكس؟ أتعين أنها تقلقك؟ وذلك طبيعي؟»

«كلّاً، ليس الأمر كذلك».

ركلت كوجيما الدرج بعقب حذائها.

«في الحقيقة لا أعلم كيف أقول ذلك، فالأمر أشبه بوجود خطأ ما طوال الوقت، ولا يمكنني فعل شيء لإيقافه. إنه هناك دائماً. وسيبان كنت في البيت أو في



الأمر بأشياء مجرّدة، أو مهمة. لست أدري».

فكرت لحظة في ما قالته.

«ماذا تعنين بمجرّدة ومهمة؟»

«نعم . . في الحقيقة لست على يقين». فركت كوجيما ما حول حاجبتيها. سمعت صوت فرك أصابعها جلدها.

«ماذا عن الأظافر؟ بوسعك دوماً قضم أظافرك».

قالت «الأظافر لا نفع فيها، فهي ثقّض بمقلام أظافر. وأنا أحب المقص. أعني، رأيت ما فعلته في المدرسة، أليس كذلك؟ لم أمزّق الأشياء تمزيقاً تاماً. لم أقض إلا أطرافها. وكنت حذرة. كل الأشياء أقضها بالطول نفسه. لن يكون إلا هدرًا إذا أسرفت في قضمها فيستحيل استعمالها. لا أبتغي التضييع والتخريب».

«ماذا تعنين؟»

«أتذكر الستائر؟ إنني إذا قصصتها قصًا كبيراً فلن تعود ستائر. أمّا الأظافر فمهما قصصتها فإن شيئاً لن يتغيّر. ستنمو مرةً أخرى. وأحسب أنها تبدو كشيء يفي بالغرض، لكنها ليست كالأشياء الأخرى. فالأظافر إذا لم تقلمها بطول كاف فإن ذلك خطيرٌ جدًّا، وقد تعلق بالأشياء. أطلال جذاي أظافرها حتى اخشوشنت وتشققت. وإن حدث ذلك للأظافر تلوّثت واعتري المرء الكزاز، ثم انتشرت البكتيريا وبلغت الرأس. مثلما حدث لجدي. جعلنا يزدان ويدوران حتى سقطا ميّثين بالشلّداء» [1]

«الشلّداء؟»

«ألم تسمع به من قبل؟ ظننت أن الجميع يعرفه. إنه مريع. أعتقد أنه مرض مثل الطاعون وداء الكلب مجتمعين».

«أهكذا مات جدّك حقًّا؟»

حدجتي بظرفها، وقالت «ولم سأخترع ذلك؟ هكذا ماتا. وكما ترى، لن ينفع أمر

الأظافر، على أنه كان رأياً صائباً. ابتغي شيئاً آخر، شيئاً أفضل».

استرسلنا في الحديث في أمورٍ شتى. مثل البقع على الخنافس. ارتفاع مقاعد الدراجات. كرات الثلج الزجاجية. لم لا يطبع الناس المال عندما يفلسون؟ حتى عن نهاية العالم تحدثنا. كأننا سنتكلم إلى الأبد، ولم نزل كذلك حتى حان وقت الذهاب. بصمت أخذنا نرنو إلى السماء، ولونها يمتد إلى جهة الغرب واليوم يدنو من نهايته. حلقت غرباً صاخبة، واحدة تلو الأخرى، كأنها تتعقب شيئاً ما. شق علينا الوداع. أردت سؤالها عما إذا كنا سنلتقي مرةً أخرى، ولم أجد الكلمات. قالت كوجيما إلى لقاء، متظاهرةً بالذهاب، لكنها ظلت تطل برأسها من حين لآخر، وكنت أضحك كلما فعلت ذلك. وفي المرة الأخيرة، لُوحت بيدها واختفت.

أول مرة التقيت ماما الجديدة كانت في الشتاء لقا بلغت السادسة من عمري. قبل ذلك، عشنا مع جدتي لأبي، وذات يوم بعد وفاة جدتي ظهرت هذه المرأة في البيت. لم يعرفني أبي بها وبأنها أُمِّي الجديدة ولم يقل إنها ستنتقل للعيش معنا. عد وجودها معنا شأناً طبيعياً. ومنذ ذلك الحين، تولت شؤون الطهو وكانت تأكل معنا

كان قد مضى على وجودها معنا أكثر من عام لقا نظرت إليّ، كأن خطباً ما وقع، وصاحت قائلة «يمكنك أن تناديني ماما». جلسنا متقابلين، نأكل صنفاً من الأسماك الحلوة. وعلى التلفاز تقافز سرب كناغر نحو الشمس الجانحة للغروب، وأخذنا نطالعها باهتمام. لم أعرف بم أجيب، فقلت نعم، وأكلت سمكتي بصمت.

منذ ذلك الحين لم تتغير ماما قط. تسريحة شعرها ظلت هي نفسها، ولم يزد وزنها ولم ينقص. تشابهت عليّ تنانيرها، وكثيراً ما ثنت جورتيها في هيئة رياطين متمائلين حول كاحليها.

قالت «ما الخطب»؟

انحنت أمام المكنسة الكهربائية تلف سلكها.

«لا شيء». أخبرتها بأن الامتحانات النهائية ستبدأ جنباً إلى جنب درس السباحة.

لم تبدُ مبالية «وكيف يمضي الأمر»؟

«أيهما؟ السباحة؟ أم الامتحانات النهائية؟»

«فلنبداً بالامتحانات النهائية».

«لا بأس. كالمعتاد».

«أهي صعبة؟»

«بعضها صعب».

قالت «حسناً. إياك أن تحصل على عشرين درجة. أحسن لك أن تحرز صفراً!» ضحكت ولم تنظر إلي.

قلت «يصعب على المرء أن يحرز صفراً، لكنني أحسب أنه ممكن إحراز صفرٍ لعدم كتابة الاسم».

«حسناً، لا علم لي، ابذل ما في وسعك فحسب». وقفت واثكأت على المكنسة الكهربائية، وقالت «ما إن تنتهي الامتحانات حتى تبدأ العطلة الصيفية».

«أعرف».

نظرت إلي كأنها تذكرت شيئاً.

«أتعلم أن ثمة شريطاً لاصقاً أحمر في طرف سلك المكنسة يشير إلى نهايته؟ لكنك قبل أن تبلغ الشريط الأحمر هناك شريط أصفر أيضاً، أليس كذلك؟ ماذا يعني ذلك؟ ألا تعتقد أن الشريط الأحمر كافٍ؟»

«أعتقد ذلك».

لم تبدُ على يقينٍ مما قالت فذهبت إلى المطبخ.

في نهاية حزيران، هطل المطر دُفْقَةً واحدة. وكلما فتحت النافذة طلباً لهواءٍ نقيٍ ملأت الرطوبة الحجرة. كل مكان بدا خانقاً مثلما كان الحال في المدرسة. في أثناء درس الفنون، قال نينوميا فلنصنع سَكَّةَ حديد، وأمر رفاقه بتثبيتي ومنعي من

الحركة وبسط أصابعي واختض هو بإطلاق دبابيس على كفي. تركت الدبابيس آثاراً صغيرة لسعها أشد من لسع النحل. تعلقت شخب سوداء في السماء أليماً، وعمت الأرجاء رائحة المطر.

ولم أزل وكوجيما نتبادل المكاتيب.

والحق أنه ما كان لي مبعث سرور إلا ذاك. ساعات كتبت ردودي مستعملاً الأوراق التي أعطتنيها.

امتلات حافظة قاموسي بالورنيقات. في الليالي التي اضطرب فيها وأعجز عن النوم لسبب غير مفهوم، أو ينهكني التفكير في مستقبلي ومدرستي، ألفت إلى رف كتبي، ودون أن أنهض، أحتق إلى الحافظة التي ضمت جميع الرسائل. ضمت الكلمات التي كتبها كوجيما إلي. رأت عينايا الأشياء ضعفين، فبدت هيئة كعب الحافظة كمستطيلين صغيرين يرسلان إلي ضوءاً دافئاً في الظلمة. كدت أمض يدي إليه وأمسحه. ثم طفقت أفكر؛ ليت الرسائل التي أكتبها إلى كوجيما تبعث السكينة في نفسها وتخفف ألمها.

مرحباً، كيف حالك؟ إنه تفوز كأنا من تؤنا أنهينا منتصف الفصل، لكن ها نحن نجز الامتحانات النهائية. لا أكاد أصدق.

حاولت يوماً عدّ الرسائل التي تبادلتها في الأشهر الماضية. كم عددها في اعتقادك؟ غدها واكتشف! سيكون غريباً إذا لم تحصل على العدد نفسه الذي حصلت عليه. على أية حال، أحسب أنك ستهش.

أتعرف ما الطريف في الرسائل؟ إنك لن تقرأ أبداً مرة أخرى الرسائل التي كتبها إلا إذا توصلت إلى الشخص الذي أرسلتها إليه أن يسمح لك بذلك. أليس ذلك غريباً؟ على كل حال، إنني أولي رسائل كل العناية إن رغبت يوماً أن تعرف كيف كنت في الرابعة عشرة من عمرك مهلاً، فكّرت توّاً في شيء جميل. في يوم الأربعاء الثاني من تفوز 1999، مهما كان ما نفعله وأينما كنا، فلنلتقي. يمكننا أن نحضر معنا رسائلنا كلها. أليس ذلك رايّاً جميلاً؟ أين سنلتقي؟ أتطلع إلى رسالتك التالية.

مرحباً. ذات يوم في المكتبة، نظرت في نبوءات نوستراداموس. كان الأمر مثلما قلت تماماً. كانت هنالك صورٌ ظهرت فيها الشمس مرعبة الشكل، وبكت ماري دماً لا دموعاً. لا علم لي بعلاقة ذلك بنهاية العالم، لكنني أعلم يقيناً أنه نذير شؤم. إنني لأعجب مما سيحدث. يبدو أن الناس يضطربون على هذا النحو في نهاية كل قرن. لكن لا تقلقي من ذلك في كلتا الحالتين. إذا انتهى العالم فلن نتمكن من اللقاء وإحضار رسائلنا للشمس، لكن الخطأ ليس خطانا. إلى لقاء.

أهلاً مرّة أخرى. أعجب وأسأل: أي شخص ستكون عندما تبلغ الثانية والعشرين من عمرك؟ في الآونة الأخيرة، فكرت كثيراً في أمور كهذه. ألن يدهشنا أن نستمر في كتابة الرسائل حتى ذلك الحين؟

حسناً، هل لي أن أسالك شيئاً؟ هي دعوة في الحقيقة.

عندما ينتهي الفصل أود أن أريك شيئاً، مكاناً. إذا لم نذهب في العطلة فسيفوتنا ذلك.

إنه «الجنة»، المكان الذي أود أن أريك إياه.

فكر في الأمر. أعتقد أنك ستحبّه. قل نعم من فضلك.

أهلاً كوجيما.

حسناً، يبدو أنك عازمة على كتمان الأمر حتى نذهب. كم أتوق إلى ذلك! أين يقع هذا المكان؟ هل أنت مستعدة للامتحانات النهائية؟ لم يكن امتحان الرياضيات صعباً كما تخيلت، وهذا أمر حسن، لكنني أجهل ما سأفعل في امتحان العلوم. إذا لم أجتز الامتحان فسيضعونني في فصول تقوية، لذا. . . الوداع الآن.

صباح الخير الامتحان النهائي الوحيد المتبقي لي هو اللغة الإنكليزية. لكنني لا أعلم كيف أبلت في الامتحانات الأخرى.

سنذهب إلى «الجنة» في أول يوم من أيام العطلة الصيفية. سيكون ذلك أول شيء نقوم به في هذا الصيف، الأول من نوعه. سأنتظرك عند بوابة التذاكر في

ما إن دُبرْتُ للقاء كوجيما في الصيف حتى كان من المحال أن يهدأ لي بال.

أردت أن أعرف ما هذه «الجنة» وإلى أين تنوي كوجيما أن تأخذني، على أن أكثر ما أثار حماسي هو لقاءنا وذهابنا معاً إلى مكان ما. لم أعرف ما كان علي أن أجلب معي، ولا ما أرتدي، ولا كم من المال سأحتاج. كان ما أرتديه هو أكثر ما أزعجني. الحق أنني لم أكن أعير الثياب كبير اهتمام، فقد لبست ما ابتاعته لي ماما فحسب دون قلق. وبعد جهد جهيد خلصت إلى أنني لن ألبس ثياباً عليها رسم. وذلك لم يترك لي خيارات، فقضيت ساعات متوالية أعُدُّ لملبسي. ثم قرَّراري على ارتداء قميص قصير الأكمام داكن الزرقة بياقة ضيقة، وبنطال جينز ارتديته منذ العام الفائت، وحذاء رياضي من علامة كونفيرس يغطي الكاحل كنت ألبسه خارج المدرسة. إلا أن نفسي لم تقنع بأن ذلك خيار سليم. وما كان هناك أحد لأسأله. وحتى مع حل مسألة اللباس كان هناك موضوع المال. ما بقي لي من مصروف رأس السنة وما أذخرته من مصروفي الشهري بلغ نحو ١٠٠٠٠ ين. منحني إحصاء الأوراق النقدية ثقة موقنة. وضعت المال في محفظتي ووضعت المحفظة في جيبتي لأخبر كيف يكون الشعور بها. شعرت بأنني أكبر حجماً، وبأنني أستطيع المشي منتصب القامة. أجل. أيقنت أن هذا كافٍ للتصدي لأي شيء يعوق طريقنا. ثم عاودني القلق بشأن الثياب.

في آخر يوم في المدرسة قرأت مكتوب كوجيما الأخير في الحقام ووضعت في مفكرتي مثلما فعلت بالمكاتيب الأخرى. ولما خرجت إلى الرواق حرصت على السير لصق الحائط طوال طريق العودة إلى الصف. جلس نينوميا إلى طاولة في منتصف الصف محاطاً بالآخرين. استغرقوا في الضحك من شيء ما. سمعت أحدهم يقول شيئاً عن المدرسة الصيفيَّة. تجنَّبت أنظارهم وضحكهم وعدت إلى مقعدي بهدوء قدر ما أمكنني، ولبثت أجدب الهواء إلى صدري وأتنفَّس تنفَّساً قصيراً، ثم وضعت راحتي في المساحة الباردة داخل طاولتي.

رنَّ الجرس. انتهينا من المدرسة، واصطخب الصف كأن سداً قد تحطم. خرج التلاميذ من الصف كدأبهم حينما يتحرَّرون ويمكنهم الخروج. رأيت فتاة تركل ظهر

مقعد كوجيما في طريقها إلى الخروج. جفلت كوجيما وقفزت في مقعدها. سكنت في مكانها لحظة، ثم ما لبثت أن استجمعت قواها ما إن خرجت الفتيات وحملت حقيبتها وببطء غادرت الغرفة بيدين ممتلئتين وكتفين مثقلتين .

نظرت إليها وهي تخرج، ثم بدأت أحزم حقيبتني. مژبي رفيق لنيوميا وضرب قفاي. غاصت أسناني في لساني. عميقاً. عضت نواجذي الجانب السميكة آخر اللسان عضاً شديداً بان له صوت. ألمني اللسع في لساني حتى ظننت أنني سمعته ينبض. شدّ الألم عضلات عنقي. لم أستطع إغلاق فمي، وطعمت الدم في لعابي. استمر إحساسي بالخدر. احتشد الألم في جمجمتي. وما استطعت إلا ابتلاع كل ما ملأ فمي.

جلست بلا حراك في الصف الخالي، وبلغ مسمعي صوت شخص يصفر في القاعة متوجّهاً نحوي. تحفّزت للاختباء تحت طاولتي لكن الوقت لم يسعفني.

كان ذاك موموز. توتّرت. لم أستطع النظر، ولما نظرت لم يبد إشارة إلى أنه رأي. لكأنه كان وحده هناك يصفر لنفسه. وضع يديه في جيبينه ومشى نحو طاولته وهو يخطو خطواً رشيقاً يخسد عليه.

جلس وأولاني ظهره، وشرع ينقر الأرض بقدميه محافظاً على إيقاع صفيره. ثم مال وأخرج مفكرة من حقيبته وطفق يكتب. لم أستطع رؤية ما يكتب من مكاني. رفع ناظره من حين لآخر وهز رأسه، ثم أوما برأسه واستأنف الكتابة.

وأنا أنظر إلى حركة ظهره ومرفقيه أفيثني أصغي إلى صفيره. ما لم أعرفه، لم يكن اللحن، بل مذهبه في الصغير. كان صغيراً متقناً، كل نغمة خرجت واضحة وصحيحة. لم يمنعني من النهوض والخروج شيء، إلا أنني لسبب ما لم أخرج.

فتاة نادت باسم موموز. وقفت بالباب. لها غزّة فُصت خصلها في خط مستقيم فوق حاجبيها، وكانت عيناها السوداوان، عيناها شديداً السواد على نحو لا يصدق، ترنوان إلى موموز. كانت صغيرة السن بوجه صغير. وقد بدت أصغر سناً من أن تكون في المدرسة معنا. ارتدت الزي المدرسي، لكنها لم تبد قط فتاة في مرحلتنا الدراسية. وقد بلغت من الجمال مبلغاً أعجزني عن الإشاحة بوجهي، ولم تشبه أي

فتاة رأيتها في حياتي كلها. وقد استغربت أمراً، فوجهها شديد الشبه بوجه موموز. كأنه فطن لوجودها لكنه تابع الصغير والكتابة في مفكرته. وما بدا أن الفتاة لاحظت وجودي، لكنني لم أكن موجوداً. أقبلت على موموز ووضعت يدها على طاولته. نظرت إلى المفكرة، أمالت رأسها في وقت وافق صغيره وواصلت النظر إليه وهو يكتب. شعزها الطويل المسترسل مش ذراعه. جثت ونظرت إليه. ولما انتهى وقفاً دون أن يتفوها بكلمة. وضعت الفتاة يدها على مرفقه وخرجا من الغرفة. تابع موموز الصغير دون أن يفوت إيقاعاً.

أسندت ظهري إلى المقعد لم أدري فيم أفكر. وما صدقت أن موموز كان هناك حقاً، دع عنك تلك الفتاة التي لم أرها من قبل وظهرت من العدم ثم خرجت برفقته. كنت مسلوب اللب فأضعت اللحن المتقن الذي صغره موموز. وكذلك وجه الفتاة هرب مني.

في آخر الأمر، لما هممت بحمل حقيبتني لأخرج دخل نينوميا إلى الصف. استويت جالساً، لكن نينوميا بدا مشوشاً، وعندما رأى الغرفة خالية خرج. بعد لحظة أو اثنتين، عاد إلى مدخل الباب وسألني عما إذا كنت قد رأيت موموز. هزرت رأسي كأنني لا أعرف.

## الفصل الثاني

وفي الصباح، خرجت من البيت في فسحة من الوقت لأصل قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة. أبلغت ماما أنني سأقصد المكتبة الكبيرة الواقعة في بلدة أخرى.

بقلبي انتظرث قرب آلة حجز التذاكر حتى ظهرت كوجيما في التاسعة صباحاً. في الميعاد. كان شعرها على حاله المعهود، وكذلك حذاؤها الرياضي، لكنها ارتدت قميص هاواي وتثورة حليبيّة اللون انسدت على ربلتيها .

إضافة إلى رأسها الأشعر وتثورتها المنتفخة، كان قميصها الهاواي فضفاضاً وممتلئاً برسوم ورق أشجار شائك وفواكه حمراء كحبات مانجو. وقد ربطت كوجيما طرفي قميصها في عقدة محكمة على سُرّتها. تلك كانت أول مرّة أرى فيها شخصاً يرتدي قميص هاواي في الواقع، لكنني من فوري عرفت ما كان ذلك. عندما رأنتني كوجيما هرولت نحوي ملوّحة بيدها، وبالأخرى حملت حقيبة لينة رسم عليها وجه قطّة كأنه صورة فوتوغرافية.

«مستعدّ؟» قالت مقبلة نحوي بتبشيم وخَفَر. وشعرث بشعورها ذاك، لكنني أبديت صرامة، وقلت لها إني مستعدّ. وقد دنت مئي حتى رأيت الخرزات الزجاجيّة على المشبك الذي ثبتت به شعرها إلى الخلف.

قالت وهي تحكّ حاجبها «استيقظت باكراً جدّاً».

«في أي ساعة؟»

«الرابعة».

قلت «أووّه! ألسّت ناعسة؟»

قالت «نعم، مع أنني اعتدت الاستيقاظ في السابعة. مهلاً، ما بال صوتك؟» نظرت إليّ بريبة. «يبدو مختلفاً».

«عضضت لساني».

طرفت عينيها، وقالت «متى»؟

«بالأمس».

«لا بد أنك عضضته بشدة».

قلت «نعم، قد فعلت ذلك».

«هل ألمك؟» و طرفت عينيها أكثر.

أجبتها بأنه آلمي.

«هل بكيت؟»

قلت «كلا».

قالت إن الألم إذا كان شديداً فلا بد أنني بكيت. أخبرتها بأنني أرى الألم والبكاء شيئين مختلفين.

«أتظن ذلك؟» قالت وقد أمالت رأسها، ثم تراجعت إلى الوراء كأنها مدهوشة ونظرت إلي من رأسي إلى أخمص قدمي. «لم أرك من قبل ترتدي شيئاً غير ثوبك المدرسي. انظر إلى نفسك».

قلت «أنا طبيعي جداً. لا تنظري إلي هكذا. أعني، انظري أنتِ إلى نفسك».

أحنت عنقها لتتنظر إلى نفسها «هذه؟ إنها ثيابي الاستوائية؟»

«جميل».

«إنها مثل أفضل بعض أيامي».

سألتها «أفضل بعض أيامك؟ وما يعني ذلك؟»

سألني بدورها «ما قصدك؟ ألا تستعمل هذا التعبير؟»

«لا أعتقد ذلك .».

«حسناً، كيف لي أن أشرح ذلك؟ إنها الثياب التي ترتديها في أيام خاضة فقط».

ضحكت، وقلت «أوه، تقصدين أنك في أبهى حلة؟»

«أبهى حلة؟ هل ذلك يعني الشيء نفسه؟»

«أعتقد ذلك».

«أوه». نظرت مرة أخرى إلى قميصها الهاواي. ونظرت إليه أنا أيضاً.

قلت «يبدو الطقس صيفاً حقاً».

نظرت إلي نظرة لطيفة، وقالت «إنه كذلك. كان الظلام ما زال مخيماً عندما

استيقظت، بيد أنني عرفت فوراً أنه الصيف. الصيف يبدأ اليوم».

ونحن ننتظر على مقعد على الرصيف، اندفع إلى المحطة الوجه الأخضر الداكن

للقطار. أرسل صوتاً يشبه صوت حيوان كبير ينفث هواءً من منخريه. انفتحت

الأبواب بأثاق، وما إن ركبنا حتى انطلق القطار ببطء إلى الأمام.

كانت العربة لنا وحدنا إضافة إلى زوجين عجوزين، ورجال أعمال، وامرأة طويلة

شعرها. تمايل القطار قليلاً من جانب إلى آخر. جلست وكوجيما هادئين نشاهد العالم

يمرّ خلف النوافذ، لكن قلبي كان يخفق خفقاناً شديداً كلما فكرت في أننا خرجنا من

البلدة على هذا النحو.

بعد حين نظرت إليها، وبقدر ما أمكنني القول، فقد تأثرت هي أيضاً. أشرق وجهها

إشراقاً ما بدا عليها في المدرسة قط، بل إنه أشرق أكثر مما أشرق حين التقينا في

درج النجاة من الحريق. ولما نظرت إليها خفّ توثيري وغمرني إحساس بالراحة.

سيكون هذا مُسلياً.

وأنا جالس إلى جوارها، أقرب إلى وجهها من المعتاد، جرث أين أنظر فاضطربت

قليلاً. أمّا كوجيما فلم يُثر ذلك قلقها. نظرت إلى عيني على نحو ما تفعل كلما التقينا،

وتحدّثت عن أمور شتى شارحةً بيديها. وكلما أخذتها الحماسة علا صوتها وارتفع.

وقد أعجبني ذلك، ولما أدركت أن صوتها قد علا تنبّهت وتكلّمت همساً. ثم ما لبث أن

ارتفع صوتها مرة أخرى، وعندما رأيته قد تفضت إلى ذلك، ضحك كلانا.

«سعادتين».

«وما معنى ذلك؟»

«إنه مثل هرمون الدوپامين الذي يحدث عندما تكون سعيداً جداً».

«أوه نعم؟»

وضّحت قائلة «وعندما تتألم ألماً شديداً، فذلك يُسمّى الألم».

سألته «وماذا عن حالي عندما أكون وحيداً؟»

ضحكت وقالت «وحيّمين».

عندما هدأ حديثنا، التفتت كوجيما ونظرت من النافذة، واضعة يديها على الحقيبة في حجرها. عكفت على مداعبة صورة القطة بسبابتها كأنها تستطيع استشعار فروها.

انطلق القطار بين صف من البيوت خارجاً إلى مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، فانتقلنا فوراً بسرعة كبيرة إلى صيف كامل.

روت لي كوجيما قصصاً شتى عن القطة التي احتفظوا بها، وعن شدة سواد فروها ونعومتها، وعن الكلب الهجين وذكائه ولطفه.

قالت إنها عندما كانت طفلة كان عندهم في بيتهم قطيع من حيوانات مختلفة. وبسببها ظرد أبوها من البيت.

«أحببت الكلب والقطة، لكنّ أبي أحبّ الحيوانات الصغيرة كالأسماك الذهبية والاسلحاف واللش والشبوط وما شابه. كان عندنا كثير منها».

سألته «أين تضعونها؟»

«حسناً، تكلف أحواض السمك كثيراً. وقد كنّا مفلسين حينها، لكنّ والدي وجد حوضاً ضخماً مصنوعاً من الستايروفوم في مكان ما، من النوع الذي له غطاء. لم



قالت كوجيما «حسناً. أعتقد أنني فهمت. مثل أن تكون نائماً، وتحلم، وحتى عندما تستيقظ تفكر في ما حدث في أحلامك. صخب على هذه الشاكلة. وإني لأعجب إن كان بوسع المرء الكف عن التفكير».

قلت «لا شك أنه يستطيع، في الأقل بضع ثوان».

قالت كوجيما وهي تغالب تشاؤمها «إذا كان كذلك، لن يستطيع، صحيح؟»

أدفأت الشمس أعناقنا. وكان شعوراً لطيفاً نظرت إلى وجه كوجيما لحظة. بدت ناعسة. وبينما شق القطار طريقه بين حقول الأرز، أخذ يتقدم ببطء بالإيقاع نفسه طوال الطريق.

وجدثني أقول «أحياناً أتفكر في حالنا وما سيكون عليه لو لم تكن هناك كلمات».

قالت كوجيما وهي تنظر إلى عيني «أجل، فنحن الوحيدون الذين في حاجة إليها. الكلاب لا تحتاج إليها، ولا الأشياء كذلك، مثل الزي النظامي أو الطاولات أو الزهرّيات».

قلت «أنت محقّة. انظري إلى الأشياء الأخرى في العالم. لقد فقناها عدداً».

قالت كوجيما «إذا فكرت في الأمر ملياً، فستجده ضرباً من الغباء. البشر هم الوحيدون الذين يتكلمون طوال الوقت ويسبّبون المشكلات وكل شيء».

حشرت كوجيما. وأوماً برأسي.

ردّد القطار هديره بين المحطات متساوية المسافات. وفي كل مرّة وقفنا فيها ذكر جامع التذاكر اسم المحطة. وكلّما أغلق مكبر الصوت، انبعثت فرقة أضحكت كوجيما. تراكضت حقول الأرز الخضراء وانبعثت من بينها بيوت صغيرة. ومن شماريخ النبات الناتئة أشع ضوء حاد ساير القطار وواكبه.

قلت «مهلاً يا كوجيما. هذا الفردوس الذي نثجه إليه .».

«ليس الفردوس. إنه الجنة».

«الجنة»؟

«أجل، الجنة بالآلف واللام».

كزرت قائلاً «الجنة».

ابتسمت كوجيما، وقالت «ذلك صحيح. لكنني لن أستفيض في القول. ستري عندما نصل إلى هناك. انتظر».

أومات برأسي، فبادلتني كوجيما الإيماء راضية. بصمت استغرقنا في النظر من النوافذ إلى المشهد العابر والقطار يهزهزنا.

أخيراً قالت كوجيما «في ما يتعلق بما قلته سالفاً أحسب أنني عرفت مقصدك. عندما تُخدش طاولة أو زهرية، لا تُبدي ألمها».

سألتها «ألن الطاولات والزهرات لا تستعمل الكلمات؟ أهذا ما تعنيه؟»

قالت كوجيما «لا أعلم، ربّما. أكثر من ذلك أن الطاولات والزهرات لا تُصاب بالأذى». وأضافت برفق «حتى إذا انكسرت».

أومات برأسي قائلاً «أجل».

قالت برفق أشدّ «لكنّ الناس مختلفون. في بعض الأحيان لا يمكنك أن ترى الندوب. لكنني أظنّ أنّ هناك ألماً كثيراً». بعد ذلك ران عليها الصمت.

لم تكف عن مداعبة وجه القطة الذي على حقيبتها. طفقت أراقبها بصمت. وقف القطار في المحطة التالية. فُتحت الأبواب. ترجل بعض الناس، وركب آخرون وحلّوا محلهم. انطلق القطار مرّة أخرى. بعد حين، سألتني كوجيما عن شيء آخر، كأنها تريد التيقن.

«مهلاً . . . إذا استمررنا في هذا، في عدم قول شيء مهما فعل الآخرون بنا، ألا تعتقد أننا سنصبح أشياء نحن أيضاً؟»

لم أعرف بم أجيب فطأت رأسي. شعّ الضوء خلال النوافذ كلّها كاشفاً من كلّ



في الداخل، كانت الجدران والأرضيات بيضاء، والأسقف مرتفعة جداً، وكان هناك أناس كثيرون والصباح في أوله. وقد تراث جميعهم وتمهل متحدثين بهميس هسهس كنسيج وهو يغوص في الجدران البيضاء. غلقت اللوحات حتى مد البصر باعثة هالة ضوئية دافئة. وبينما نحن وقوف أمام اللوحة الأولى نظرت كوجيما إلي، وقد غشي الانفعال وجهها. حذقت إلى اللوحة، ولم تقل شيئاً، ثم قفزت إلى اللوحة التالية.

مشيت وراءها ناظراً أولاً إلى كل لوحة ثم إلى كوجيما وهي تنظر إليها.

شرعت تنظر إلى اللوحة من بعيد لتستوعبها كلها ثم تدنو منها شيئاً فشيئاً وقد أطبقت شفثيها. وما تلبث حيناً رانية إليها حتى تنظر إلي. وكلما نظرت إلى اللوحات ظهرت خطوط على جبينها، ولم يبد أنها استطابت الأمر واستلذته، بل تأدت وتوجعت. وبعد فراغها من قراءة الشرح كاملاً على اللافتة التي إلى جانب اللوحة، كانت تقفز إلى وراء كأن شيئاً خطر ببالها، وتزفر بعمق، ثم تنتقل إلى اللوحة التالية كأنها تدفع إلى الأمام دفعا.

اللوحات هنا غامضة محيرة.

على أقمشة القنب الحمراء والخضراء فتيات يراقصن حيوانات، ماعز تحمل كمنجة في فمها، ورجل وامرأة يتعانقان تحت خزم أزهار متوهجة ضخمة.

تلك الصور الكثيرة التي ما ربط بينها رابط شابهت نظرة إلى حلم. على أنه لم يكن حلماً جميلاً. الفرحة الذي رأيته هناك متوحش والحزن بارد خانق. تناثرت الزرقة على قماش القنب مصارعة الصفرة المقبلة كإعصار. وقد اجتمع الناس مشدوهين وهم يتفرجون على ميدان ضاح بالحياة. وأعلى مدينة ثلجية، أغمض رجل في رداء أبيض عينييه وصلّى. كل لوحة كانت لحظة دمار وافقت ولادة شيء رائع. وكل إطار حوى عوالم متضاربة. حشد جذب إلى شمس تدور كطاحونة. أسماك جرفت إلى الشاطئ. فرس حذر له عينان بشريتان أكثر من أي إنسان حي. فتاة شاحبة.

«أنت تنظر إلى اللوحة»؟

وقفت حائراً أمام لوحة عندما سمعت صوت كوجيما. حين تنبّهت لما كانت تسألني قلت نعم.

«هل رأيت ما أعجبك؟»

قلت «لست أدري بعد». استرخى وجه كوجيما أكثر من قبل. بدا مُظْمِئاً.

سألها «إذا المتحف هو الجنة؟»

قالت «لا. الجنة لوحة». حشرجت قليلاً ونظرت إليّ. «اللوحة التي أحبها أكثر من غيرها».

«وثنسقى الجنة؟»

هزت رأسها، وقالت «كلاً. الفنان حازق، إلا أن العناوين مضجرة جداً وتكاد تبكييني. هنا، انظر إلى هذه».

أشارت إلى اللافتة التي إلى جوار اللوحة. كانت محققة. بدت سيئة جداً مقارنة بالعمل نفسه.

«مزعج، صحيح؟»

«نعم، قليلاً».

«لذلك منحتها عنواناً أفضل».

«أفعلت ذلك؟»

ضحكت بفخر «أجل. الجنة لوحة تصوّر حبيبين يأكلان كعكاً في غرفة بها سجّاد أحمر وطاولة. إنها جميلة جداً. وما يبهج حقاً هو أنه باستطاعتها مدّ عنقيهما كيفما أرادا. أينما ذهبا، أيّما ما كان ما يفعلانه، لا شيء يفرّق بينهما. أليس ذلك أفضل شيء؟».

«بلى».

ضحكت كوجيما بسعادة وقالت «إنه الأفضل».

«إذا نظرت إلى الغرفة لحظة فإنها تبدو مثل أي غرفة أخرى. لكنها ليست كذلك. إنها في الواقع الجنة».

«الجنة كمكان؟»

قالت كوجيما بحذر «لا، بل الجنة التي وصفتها لك».

«هل تطلقين عليها هذا الاسم لأنهما ميّتان؟»

تحدثت كوجيما إلي بصوت منخفض آت من آخر حلقها «لا. شيء مؤلم جداً وقع لهما، محزن جداً. لكن أتعرف ماذا؟ لقد تخطيا ذلك، وعاشا في توافق تام. بعد كل شيء، بعد الألم كله أتيا إلى هنا. تبدو مثل غرفة عادية، لكنها في الحقيقة هي الجنة».

تنهدت وعركت عينيها.

قالت «الجنة .. عندي صورة لها في كتاب».

«حقاً؟»

«من الطرافة أنك كلما نظرت إلى الصور، ليس فقط صورة الجنة، إنما أي صورة، بدت الأشياء الحقيقية أكثر زيفاً. هنا، انظر؟»

أشارت كوجيما.

«إنهم يحلبون فرساً .. وللفرس عقد».

قلت «انظري إلى هذه الألوان». كانت دافئة، لكنها لم تكن مريحة بالضرورة. وجه ضخم وألوان كثيرة. نظرنا إلى اللوحة معاً.

همست قائلة «انظر إلى هاتين العينين. أترى الخط الأبيض الذي يصل بين الحصان والرجل الأخضر؟»

عينان. في اللحظة التي تفوّت فيها بالكلمة كدت أن أصاب بنوبة قلبية.

تابعت كوجيما التحديق إلى اللوحة.

خلفنا كان صبي لم يكد يستطيع المشي بعد، أفلت يد أمه وركض حتى اصطدم بساق كوجيما. وقع وانخرط في بكاء شديد. أربك الصوت كوجيما واستبدّ بها التوثر. أمسكت الأم بيد الصبي وحملته وهي تنحني معذرةً لكوجيما. لم تعرف كوجيما كيف تردّ فانحنت بدورها للمرأة. نظرت إلى المرأة وهي تقود ابنها إلى خارج دار العرض. وما إن تواريا حتى تنهّدت كوجيما ونظرت إليّ بالعينين المرتبكّتين نفسيهما. وددت أن أقول شيئاً يزيح غمامة الحزن عنها، لكنني ما كدت أجد الفرصة لذلك حتى كانت كوجيما قد عادت إلى اللوحات، فلحقت بها دون قول شيء.

بعد حين، سألتها أخيراً.

«أين الجئة؟ بعيداً في الداخل؟»

ولما التفتت ناظرةً إليّ شعرت كأنني أستطيع رؤية وجهي أمام عيني.

تكلّمت برفق بالغ قائلة «أجل، إنها بعيداً في الخلف، لكنني متعبة. فلنسترح».

خرجنا. جلست كوجيما على أحد المقاعد ولم تتحرك ولم تتكلّم.

عندما قلت إنني سأجلب شراباً، قالت إنها ليست عطشى، فمشيت إلى آلة البيع وأحضرت شراباً لي. تعلّقت الشمس عالياً في السماء. وأنا جالس هناك شعرت بالعرق يتشكّل في إبطي وحول رقبتني. ولمع الجلد تحت أنف كوجيما من العرق. من مجلسنا رأينا مرجاً فسيحاً يرتفع عثاً قليلاً، جلست فيه العائلات والأزواج لتناول الغداء على مفارش النزهة. آخرون تنافسوا على ركل كرة هنا وهناك، وعمد بعضهم إلى خلع قمصانهم والاستلقاء على الأرض طلباً للتشمّس. وقد نمت في الحقل أشجار كبيرة، أثكأ الناس عليها واستغرقوا في القراءة. قلت لنفسي إنه أوج الصيف. ومن الأفق لاحت السماء بزرقة سخية. جلست كوجيما بسكون تام، ممسكةً بحقيبة القطة في حجرها. رشفت شرابي وفطنت إلى أنني لم أكن غطشاً أنا أيضاً.

«ما الخطب»؟ سألتها غير عارف بما يجدر بي قوله. مَزَاتْ هَزَّتْ كوجيما رأسها ببطء، ثم هَزَّتْ رأسها مَزَّةً أخرى كأنْ هَزَّةً أخرى فاتتها. أومأت برأسي ونظرت إلى الناس الجالسين على العشب. فكَرْتُ في أنْ المشهد بدا مثل لوحة. أناش شئى مشوا قرب مقعدنا. مسحْتُ جبيني بظهر رسفي.

بعد حين، سألت كوجيما إذا ارتأت أن نعود أدراجنا. لم تُجِبْ، عدا أنها هَزَّتْ رأسها مَزَّةً أخرى.

«حُزْنَمِين»؟ سألتها مجزباً التحدُّث بلغتها، لكنها لم تقل شيئاً. وليتني لم أسأل. وما كان بوسعي سوى الجلوس هناك فحسب. وفي آخر الأمر، أدركت أنها كانت تبكي.

لم تبك بصوت عالٍ. أشاحت بوجهها عني وغطت عينيها بيديها. انهمرت الدموع من كفيها على وجنتيها. ضغطت قئينة شرابي الذي فتر، ونكست رأسي. فكَرْتُ في ما يمكنني قوله لها وأنا أراها باكيةً قربي، وما خرجت إلا خالي الوفاض، عاجزاً عن التصرف وفق مشاعري.

أخيراً قالت بصوتٍ منخفض «إنه ليس أمراً واحداً». فركت وجنتيها بكفيها، وبصوتٍ خافتٍ لا يكاد يُسمع اعتذرت.

«قطعنا هذا الطريق كله»، قالت مبتسمةً باضطرابٍ وهي تحاول إخفاء بكاها، وما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

احمَرتَ عيناها، وتدلى المخاط من أنفها داخلاً خارجاً وهي تتنفس. بدا المشبك الذي يمسك خصل شعرها المطاطة كأنه سينفك في أي لحظة. وقد لاحظت بقعةً على شكل حبة فولٍ على وجنة كوجيما اليمنى حيث ذهب لون بشرتها. ما دنوث منها هكذا من قبل. وعجبت من ضعفها ووهنها. لم تُبْدِ أي مقاومة، مثل مخلوقٍ صغيرٍ مهيبض الجناح ينتظر من ينتشله. أعلم أنني كنت مهيبض الجناح أيضاً، غير أن كوجيما الجالسة قربي على ذلك المقعد بدت أصغر من أي طفلٍ رأيته. أضعف ممَّا بدت عليه في المدرسة. حزنْتُ حزناً شديداً. لا حول لي ولا قوَّة على فعل ما هو أكثر

من الجلوس والتحديث، فقد كنت بانساً كل البؤس.

لم أقدر على اكتناه سبب بكانها، فجلسنا هناك صامتين فحسب. داعبت كوجيما القطة التي على حقيبتها مثلما فعلت ونحن في القطار. لعل نوبة عصبية اعترتها. رفعت بصرها، كأن الأسوأ قد ولى وانقضى، ورنّت إلى السماء.

قالت «لما يكون الخارج جميلاً هكذا شيء ما يشل حركتي»

تشبعت سماء تفوز بالصيف. وقد سكنت الأشياء فوق رأسينا.

ضحكت، وقالت «أشعر كأنتي في حبس».

قلت «كأن غطاءً وُضع فوقك».

أدخلت كوجيما يدها في حقيبتها وسحبت رزمة مناديل ورقية. سألت عفا إذا كان بوسعها أن تتمخّط. قلت نعم. أدهشني تمخّطها بصوت عالٍ.

قالت وهي تمسح أنفها «لحسن الحظ أن عندي هذه المناديل. أتدري، يريحني خروج هذا من أنفي».

«سرّني ذلك».

«ما من عادتي حمل مناديل ورقية».

«نعم».

«يسعدني أن جلبتها اليوم».

«نعم».

سألتني «أتريد التّمخّط أنت أيضاً؟»

قلت «لست بحاجة إلى ذلك الآن». نظرت إلى جيوبي. «لا أحمل أي شيء أبداً. فقط محفظتي».

«وماذا عن قلمك الرصاص الأثير؟ ألا تحمل حتى هذا؟»

«لا يمكنني كتابة شيء وأنا لا أحمل إلا قلم رصاص»

«لكن لهذا يحمل الجميع مفكرة صغيرة، صحيح؟»

«جيوبي لا تسع مفكرة».

قالت كوجيما «بلى. لا أحمل أشياء كثيرة أنا أيضاً». فتحت حقيبتها حتى أنظر بداخلها. «فقط محفظتي، ومناديلي الورقية، ومقضي».

«أتحملين مقضك معك؟»

لا بد أن العجب بدا علي، فقد أومات كوجيما برأسها بحرج.

قالت «لكن مهلاً. ليس الأمر كذلك. ما عدت أقض الأشياء».

«لا ضير، يمكنك قض ما شئت. إنني متعجبة ليس إلا. وما حسبث أنك تجلبين مقضاً إلى متحف».

قالت محرجة قليلاً «ما جلبته لأننا آتيان إلى هنا»

قلت «لا. معذرة».

«دائماً ما أحمله معي، خارج المدرسة . . . ليس لأنني سأستعمله. خيّر أن يكون في حوزتي وكفى. لا لأنني بفضل أأمن على نفسي أو نحو ذلك. أحب أن يكون عندي فحسب». أغلقت حقيبتها ومزّات قلبتها رأساً على عقب، ثم وضعتها في حجرها مرة أخرى.

قالت «أعلم أنه أمر غريب».

غظت فمها بيدئها وتبشمت بعصبية. بلغتنا من المرج أصوات فتيات وفتية يمرحون. درّاجات عبرت أمامنا تنزّ أزيزاً. أعشى نور ساطع عيني، فأغمضتهما، وعندما نظرت رأيت شخصاً على حافة المرج البعيدة يفرش مفرشاً فضياً.

فكرت حيناً، لكنني قلتها.

«كوجيما، أخرجي مقضك».

«لماذا؟»

«هناك سبب».

«لكن لماذا؟ تشكّلت غصونٌ صغيرةٌ بين حاجبيها.

ضحكت، وقلت «لأنّ».

حارت في أمرها «لماذا تضحك؟ كُفّ عن ذلك».

قهقهت، وقلت «معذرةً. أنا لا أضحك منك».

سألت بحدّة، بالنظرة الحائرة نفسها «إذاً فلماذا تضحك؟»

«أنا لا أضحك».

«بلى أنت تضحك».

«نعم، لأنّك لا تصفين إليّ».

«أنت من لا يصفني إليّ .. لأيّ شيء تريده؟»

صمتنا وقتاً ونحن ننظر إلى أطراف حذاءينا. كانت قدماي أكبر من قدميها على نحوٍ ظاهر، فجعلت أفكر في غرابة الأقدام. في شكلها الغريب ذاك. وبينما كنت أنظر إلى حذاءها وكّزت حذائي، فوكّزت حذاءها. فعلنا ذلك بضع مرّات، ثم ضغطت حذاءها على حذائي، وقالت «حذاؤك كبيرٌ جدّاً». ضحكت، وقلت ذلك لأنني ولد. قالت إنني محقّ، ثم لذنا بالصمت مرّةً أخرى.

قطعّ الصمت، وقلت «إنّ شئ، لك أن تقضي شعري. أتذكرين ما قلّته من قبل؟ عندما تشعرين بالطبعي يفلت منك. إذا كان هذا ما يحدث، يمكنك قص شعري».

حدّقت كوجيما إليّ فاتحةً فكّيها.

«شعرك؟ لماذا؟»

«بلا سبب. فقط فكّرت في أنّك قد ترغبين في ذلك»

«ماذا تقصد بشعرك على أّية حال؟ يعني، أين؟»

«في أيّ مكان. أعني، ما دمت لن تقضي كثيراً منه. والحقّ، لا بأس إن فعلت ذلك ما دام سيبدو شعري هو نفسه».

عندما سمعت كوجيما هذا داعبت أصابع يَمناها ظهر يدها اليسرى. أوشت على الكلام لولا أنّ شيئاً منعها.

قلت «كلّما شعرت بتداعي الأشياء وسقوطها، أو وجدت أنّها أجمل من أن تُصدّق، كلّما سلكت الأشياء مسلكها هذا، لك أن تقضي شعري، بدلاً من قض رسائل البريد المهمة أو أيّ شيء آخر عندما لا يكون في البيت أحد. خبّريني فحسب، ويمكنك قض شعري كلّما عنّ لك ذلك».

رمقتني كوجيما. نضح وجهها بالعرق، فبان عليها الانتفاخ. أوشت النهار على الانتصاف وزادت الحرارة. خلّت السماء من الغيوم، وما ظهر ظلّ في مرمى البصر. ومن حينٍ لآخر، هبّ نسيمٌ في المرج ماشاً أجسادنا برفق. ثم نظرت كوجيما إليّ وأومات برأسها كأنّها تتخلّى عن شيء ذي بال.

وبعد ذلك طأطأت، وبحذرٍ فتحت الحقيبة التي كانت في حجرها. وبحذرٍ أشدّ، أدخلت يَمناها في حقيبتها وأخرجت مقصّها. شعرها الذي أشبه غُشّاً أخفى وجهها فاستحالت رؤية ملامحها. وهي تحمل المقص في يدها حوّلت نظرها إليه. كان مقبضه بلاستيكيّاً أصفر اللون، غير مدبّب الطرفين، يصلح لحرف يدويّة. وقد تبقّعت شفرتاه بطلاءٍ مختلفة ألوانه، لفرط ما اسّعملتا.

بعد حينٍ من الوقت، قالت وهي تنظر إلى الشفرتين «إنّه عندي منذ السنة الأولى».

«من المدرسة الإعداديّة؟»

«كلّاً، من المدرسة الابتدائيّة».

«أووه، منذ ثماني سنوات؟»

سألتني كوجيما برفق «هل أنت متيقن من أن الأمر مناسب لك؟ أيروقك أن أقض شعرك؟»

«أجل، متيقن بنسبة مئة بالمئة».

أمسكت المقض بيدها اليمنى، لكنّها قبضت الشفرتين الفضّيتين بكفّها اليسرى ونظرت إلى يديها كأنّ في ذهنها شيئاً آخر.

قلت مستظرفاً «تشوب - تشوب!» ثم استويت جالساً ووضعت يديّ على ركبتيّ مولياً كوجيما ظهري.

في البداية لم تحرك ساكناً، وبعد ذلك شعرت بيديها في شعري.

وضعت إصبعها خلف أذني وأمسكت بخُصل صغيرة وهزتها بضع مرّات ليُثسّق مقدارها. حامت اليد الممسكة بالمقض خلف رأسي. أحسست بشعري يتساقط بين الشفرتين. شقّ المقض طريقه عبر أجمة الشعر وبعث صوتاً يشبه صوت شيء يُجرّش. سرت قشعريرة في أوصالي، وتنهدت كوجيما.

التفت لأراها منكّسة الرأس وهي تحمل قبضة من شعري بيدٍ والمقض باليد الأخرى وقد افترقت شفرتاه قليلاً. قضت قريباً من فروة الرأس كومة من الشعر بلغت كثافتها نحو بوصة واحدة وطولها أربع بوصات. جلس كلانا على هذا النحو، بلا حراك.

دون أن تنظر إليّ، دأبت كوجيما وجهي بكومة الشعر.

قلت وأنا أضحك «إنّه يدغدغ!»

تضجّ وجهها وحدتني ببصرها، وبدأت مستاءة أو لعلّها كانت سعيدة، أو ربّما محرّجة، أو على وشك البكاء. والحقّ، أنني لم أعرف أيّ وجه كان ذاك، لكنّها ضحكت.

«حسناً . . .» لكنّها نظرت إليّ فحسب، ما زال وجهها محمّراً، ثم أشاحت بوجهها، ثم عادت لتنظر إليّ. وما زالت تحمل خُصل الشعر قرب فمي، فتظاهرت بأكلها. لمّا رأت كوجيما هذا، ضحكت ضحكاً عالياً، وضحكت أنا أيضاً.

قلت «بقي منه الكثير، يمكنك الاستمرار». مزرت يدي خلل شعري ولمست البقعة حيث أعملت مقضها. واضح أنني لم أستطع تحديد الاختلاف عن ما كان عليه الأمر من قبل، لكنّها كانت تمسك بقبضة من شعري.

نظرت كوجيما إلى خُصل الشعر القليلة، ثم غلفتها بمنديل من مناديلها الورقية. ولما هفّت بوضعها في حقيبتها سألتها عمّا تفعل بالأشياء الأخرى التي تقضها. قالت بأنّها ترميها.

قلت «حسناً، فلترميها إذاً. ينبغي أن تفعل الشيء نفسه»

حارت كوجيما، وقالت «لكنّها ليست الشيء نفسه».

قلت «بلى إنّها كذلك. ليست بالشيء المتفرد».

لم تبدُ كوجيما على يقين ممّا تفعل، فأخذت تنظر إلى قبضة الشعر.

قلت لها «لا بأس، عندما أقول افتحي يديك افعلي ذلك»

«لا أستطيع».

قلت «بل تستطيعين. لا خطأ في ذلك. يمكنك قص المزيد كلّما شئت. هناك ما يكفي».

شدّت كوجيما قبضتها، ولم تزل ساكنة.

«لا أستطيع فعل ذلك».

«بل تستطيعين».

بان عليها الاضطراب، ولما نطقت باسمها بسطت أصابعها عفواً من غير تكلف. عاد اللون إلى يديها وشهقت وقبل أن تفتن لما حدث انفتح المنديل وتفرّقت الخُصل وسقطت على الأرض وتناثرت حتى اختفت.

لم نعد إلى داخل المتحف.

في طريق العودة لعبنا لعبة الكلمات. أحسّت كوجيما بتحسّن، وقدزّث على إضحائها بضع مرّات. كنّا نتضوّر جوعاً لأنّنا لم نأكل شيئاً طوال اليوم وسمعنا قرقرة بطنيننا. كنّا معدّتين توافقتا. قلت مزحةً في ذلك فضحكنا. بيد أنّنا كلّما اقتربنا من محطّتنا قلّ كلامنا. لم ننظر من النوافذ. جلسنا صامّتين، ولم نتحرّك إلّا كلّما حرّكنا القطار.

خارج المحطّة، عادت الأمور إلى طبيعتها بأسوأ ما أمكنها. تمّدّد الغروب في الأفق، وكبر حجم الظلال من حولنا. شعرت بأنّ الصيف الذي أحاط بنا في المرج لم يكن الصيف نفسه الذي وجدناه هنا. لم يدانيه في شيء، ولو قليلاً. برّد العرق بشّرتينا تحت قميصينا. بان التوتّر على جسدنا. وما كنّا بحاجة إلى قول ذلك، فقد عرفه كلانا.

ودّعني كوجيما ولوّحت لي. ودّعتها. نظرت وراءها وهي تبتعد حتى اختفت عند الناصية.

واقفاً هناك وحدي، نظرتُ حوالي. هنالك كنت، في مطلع الصيف، أقف في منتصفه تماماً، في المكان نفسه حيث قابلت كوجيما في ذلك الصباح. كنت أعلم أنّه المكان نفسه، لكنني لم أشعر بأنّه هو نفسه.

## الفصل الثالث

في الأسبوع الأول من الصيف، أنجزت كل العمل الذي كان علي إنجازَه في العطلة، فلم يبق شيء. وأكثر النهار كنت أقضيه في القراءة بغرفتي. ولم أذهب إلى أي مكان قط.

وعندما كان يحين وقت الطعام، تناديني ماما لناكل معاً، كالمعتاد. ولم يكن أبي يأتي إلى البيت إلا لِمَأمًا. وإذا أتى فإنه لا يطيل إقامته.

من دون المدرسة استطعت تدبّر أمري، فكنت لا أرى أحداً ولا أحد يراني. لكأنني كنت قطعة أثاث في غرفة، لا يستعملها أحد. وإنني لعاجزٌ عن التعبير عما شعرت به من أمانٍ لأنّ أحداً لا يراني. وقد عرفت أنّ السلام لا يدوم، ومع ذلك كم انسلى عني الهمّ وارتاح بالي إذ أدركت أنني إذا لم أخرج من غرفتي فلا أحد في العالم سيجرؤ على وضع إصبعه علي. على أنني لَمَّا قُلبت الأمر لم أجد سبيلاً أدخل منه إلى العالم، لكنّ هذا ما يجب أن يكون عليه الحال.

علّث نفسي بقضية عجيبة، وفيها ينساني نينوميا ورفاقه نسياناً تاماً.

عندما ينقضي الصيف سأقصد المدرسة لأجد ذكرياتهم عني قد امّحت. لن يثير وصولي أي مشاعر أو عواطف، لا شيء. حدث ما سيقع لهم في العطلة. سيصبحون أناساً مختلفين تماماً، لا يكثرثون لأمري البثّة. أعلم أنّ إكثاري من التفاؤل مؤذٍ، لكنني في عزلتي، لم أقدر على ردّ نفسي ومكنت أياماً طويلاً أتغنم بأوهام حمقاء، وصلت في بعض الأحيان إلى التضرّع بالدعاء. وكلّما طال مقامي في البيت شعرت بأنّ كل ما حدث في المدرسة إنّما كان فصلاً من قضية تعثّرت بها عندما كنت صغيراً. كأن لا شيء من ذلك كان له علاقة بما صرت إليه.

اعتدت، وماما، تناول الطعام والتلفاز مفتوح.

أتى كلّ يوم بأحداث ووقائع بدت بلا نهاية، وأوجزتها نشرة الأخبار. قرارات محاكم، أخبار مشاهير، نسب تأييد رئيس ما، اتفاقيات. أناش قُتلوا. أعاصير هبت على الأرض، وأمور شتى.

وذات يوم زويت قصة تلميذ في مدرسة إعدادية تعرض لتنمر فقتل نفسه.

أنار ضوء ورقة، وقرأ صوث جد قسماً من مذكرات التلميذ كانه كان رسالة انتحار وبعد ذلك، اعترف مدير المدرسة الإعدادية وجماعات أخرى بذنبهم العظيم وانحنوا أمام آلة التصوير التي انتقلت إلى تصوير مقابلة مع زملاء التلميذ وقد أغيمت وجوههم. زعم أهله ومعلموه وزملاؤه أنهم لم يلاحظوا فيه ما يريب. ما ثراهم فعلوا به؟ وأي شيء دفعه إلى قتل نفسه؟ قال التقرير إنهم سرقوا حاجاته وابتزوه للاستيلاء على نقوده، والأدهى والأمر أنهم أوسعوه ضرباً.

قد أطفئ التلفاز وتختفي الأخبار، أما الحياة التي أعرفها فلن تتغير. لم أجد سبيلاً إلى التخلص من حياتي. كدت أصرخ من ثقل همومي، لكنني قمعت عواطفي وأكرهت نفسي على الاعتراف بأن حالي ليست بأسوأ من حال الصبي الذي قتل نفسه. وما زادني ذلك إلا بؤساً. أي شيء أقسى على المرء من الإقدام على الانتحار لكي ترتاح نفسه؟ أما زعمي أنني على حال طيبة فلن يحل شيئاً. لن يفعل شيئاً إذا كنت أدعي فحسب.

في أوقات كهذه، بذلت جهدي لإقناع نفسي بأن للمدرسة نهايةً مثلما للصيف نهاية، وأن أعوامها إلى انقضاء عاماً بعد عام، وعلى المنوال نفسه سينتهي التنمر الذي يبذد حياتي. لكنني لا أجد نفسي إلا كاذباً إذا قلت لكم أنني شعرت بتحسّن من التفكير على هذا النحو.

عيني هي سبب مشاكل كلها.

قد أنتهي من المدرسة وأبذل بيتي، إلا أنه يحسن بي ألا أتوقع تغييراً حسناً ما دامت عيني حواء. والأكثر والأدهى هو أن حالي ستسوء أو لعلها ساءت منذ زمن وما أدركت مدى سونها بعد. لربما أكون قد قتلت نفسي مثلما فعل ذلك الصبي الذي عرفت عنه في التلفاز، أو قتلني شخص ما. لربما مث فعلاً. اكتسحتني هذه الهواجس حتى إنني ما عرفت فيم كنت أفكر. وخذرنني مزيج من الخوف والفتيان.

وقفت أمام المرأة وتفحصت وجهي. انحرفت عيني اليمنى لتنظر إلى شيء أسرته

لنفسها. إنه لامر مزعج. ملث على صورتني في المرأة. مهما أمعنت في الاقتراب  
فما كانت عيناى لتلتقيا. بدت عيني الحولاء كسمكة رخوة من عالم خفي في عمق  
المحيط، لكنها كانت هناك في مكانها، أخول من ذي قبل.

لما مشت كوجيما إلى جانبي، يوم زرنا المتحف، أثارها خجلت من أن يراها أحد  
معي؟ ربما لذلك لم نتحدث في المدرسة. وتفكرت سائلاً نفسي ما شعورها نحو  
عيني، وما ظلها بي؟ لا أعلم كم مرّة سألت نفسي ذلك.

ولكن، ماذا عليّ أنا؟

ما شعوري نحو كوجيما؟ ولم لا أبادلها الحديث في المدرسة ولا أنظر إلى عينيها؟  
أعرف، يقيناً أنني، خفت من نينوميا، لكن ما الذي أخافني؟ هل خفت الأذى؟ إذا كان  
الأمر كذلك، إذا كان ذلك ما يستحوذ عليّ، فما بالي لا أتصدى لنينوميا؟ وما معنى أن  
يؤذى المرء؟ كلما تنقروا عليّ وضربوني، لم لا أستطيع فعل شيء إلا طاعتهم؟ وما  
الطاعة؟ لماذا أخاف؟ لماذا؟ وما معنى أن يخاف المرء؟ مهما أطلت التفكير في الأمر  
فما كنت لأصل إلى إجابة.

حاولت صرف هذه المشاعر، ولما ضجرت من قراءة الكتب ومن التفكير في أمور  
أخرى، اتكأث على الحائط وغرقت نفسي في حيرتها. خلعت نظارتي وعركت عيني.  
عركتهما غزكاً شديداً. كأنّ كتبي على الرف وكذلك قوائم طاولتي، اجتمعت لتغدر  
بي لما أخذت تتضاعف في عيني، وبدا كأنّ أنفي كف عن التنفّس. فتحت سحاب  
بنطالي واستلّلت قضيبتي. بقبضة قويّة طفقت أحركه ذهاباً وإياباً حتى أنزلت ماني  
في منديل ورقي مكور. شعرت حيناً من الوقت، في الأقل، بأنني تغلّبت على توثري.  
طويت المنديل الممتلئ بالمني في منديل آخر ووضعت على حافة السرير لأرمي به  
في المرحاض فيما بعد. ما كنت أمارس هذا إلا كلما أثقلتني أمواج القلق المتكررة  
هذه بلا سبب. وليس يرضيني أن تختلط أمور تمنحني شعور الأمان والسعادة بهذا  
الفعل. لا أعرف السبب، لكنني عندما فعلت هذا لم أفكر قط في كوجيما. وما كنت  
لأستطيع إن حاولت.

أحياناً كنت أسمع صوت المكنسة الكهربائية عندما تشغلها ماما أو صوت الأطباق

حين تغسلها، غير أن ماما لم تكن لتدخل غرفتي فجأة. بلغتني الأصوات عبر شق في العالم الخارجي الممتد. أصغيت إليها وعيناي مغمضتان، كمن يحصي غيوماً بملاحظة حضورها فحسب. بعد إنزال مائي التفت بعرضي حول بعرضي وشرع جسدي يغوص في الفراش عميقاً. استسلمت للهاوية وغار جسدي مخترقاً السجاد والأرضية وأسقف عشرات الطوابق تحتي، دون نهاية. ولما سئمت هذا الشعور، استويت جالساً وأدخلت قضيبتي في لباسي التحتي وفتحت النافذة لأنظر إلى الخارج. رأيت مختلف الأشياء من نافذتي، لكن لا شيء رأني. بتناقل، يخطو الصيف، مثلي، خطواته الأولى. وسألت نفسي ما عسى كوجيما تصنع في يوم كهذا؟

ما كادت أواخر آب تحل ونودع مهرجان أوبون حتى لاحت نهاية الصيف في الأفق.

أخذت ماما تتصرف كأنها تودّ قول شيء لي لكنها لم تتفوّه بكلمة. في بعض الأحيان كنا نجلس معاً ونشاهد التلفاز. وذات يوم، طلبت إلي الخروج لتفقد البريد فرأيت أطفالاً، بعضهم ارتدى ثياب سباحة وبعضهم الآخر كان عارياً، وقد أخذوا يرشون الماء حوالينهم وهم في حوض سباحة صغير. تصايحوا وضربوا بالخرطوم في الأنحاء.

وددت أن أرى كوجيما مرة أخرى.

وقد بقيت عشرة أيام على بدء المدرسة.

شوش هذا خاطر فكري. فكّرت في مهافتها في البيت، ربّما كان رقم هاتف منزلها في دليل الصف الذي وُرع علينا في السنة الدراسية الأولى، لكن كان بوسعها فعل الشيء نفسه، أليس كذلك؟ قدّرت أنها لو أرادت التحدّث لها فتفتني. لم أتجاسر على مهافتها. لكن ماذا لو كانت قد فكّرت في هذه اللحظة في ما أفكر فيه وانتظرت مهافتني لها؟ ثم ماذا؟ وما زلت أدور وأحوم حول الأمر حتى انتهيت إلى التفكير في آخر لقاء مستعيداً ما استطعت من التفاصيل؛ لقا بكت مثلاً، أو عندما أمسكت بخصل شعري وقصتها. كم كانت التربة من حولنا جافّة، أو كيف بدا الشعور بالسير على الأسفلت. وحفنة الشعر الصغيرة تلك. أدركت كم كان ذلك اليوم حميماً. توجّع قلبي.

لما تذكرت تلك اللحظات التي تقاسمناها أدركت أنني لم أخطئ برغبتني في الكلام، لكنني لم أجرو على مهاتفتها في بيتها.

فكرت في مختلف التدابير، فقرر قراري على البحث عن عنوانها في دليل الهاتف والذهاب إلى بيتها. من هناك سأجد مكاناً أنتظرها فيه حتى تخرج من البيت فأتبعها، وعندما نكون في الشارع سأزعم أن لقاءها قد حدث مصادفةً وأناديها. دبّرت الأمر على أكمل وجه.

كان منزل كوجيما في الحي الواقع وراء الطريق المحفوف بالأشجار. تلك الأرض المألوفة أجبرتني على التفكير في المدرسة. بعد عشرة أيام من الآن، سيكون رأسي في مكانٍ مختلف، يكاد يكون أسوأ الأماكن. كأني سأقطع هذا الشارع ذهاباً وإياباً إلى الأبد. مرّاتٍ صفت وجنتي وتنفّست بعمقٍ مدّعياً المرونة. واستأنفت السير.

تبعّت المسار الذي بحثت عنه في خارطةٍ وبلغت وجهتي بلا مشقّة. وما كان عسيراً العثور على بيتها. بخلاف البيوت المجاورة، بُني بيتها من طوبٍ فاخرٍ بلونٍ شايٍ محمّص. وقد نُجّنت اللافطة التي على البوّابة من بلاطٍ سميكٍ لحجرٍ جميل. ما رأيته لافطةً مثلها من قبل قط. كلّما أمعنت النظر فيها بدت شيئاً لا يخض بيتاً. كأنها شاهدة قبرٍ صغيرة. وخلف البوّابة وقف صفّان من الأشجار متعرّجة الجذوع التي ما عرفت لها اسماً. وفي آخر صفّي الأشجار قام بناءٌ متينٌ من ثلاثة طوابق، وكانت على كلّ نافذة ستارةٌ من الدانتيل الأبيض. وما كان البناء جديداً تماماً، غير أنه لم يكن قديماً أيضاً. يمكن القول إنه كلّف من المال كثيراً. لم يكن هو البيت الذي توقّعت.

اختبأت حيث أمكنني رؤية المدخل وأخذت أراقب. انزلت نظارتي لغزارة العرق. ظللت أعيدها إلى مكانها فوق أنفي، لكنها كانت تنزلق كلّ مرّة.

كأني وقفت هناك إلى الأبد، ولم يكد يمضي أكثر من عشر دقائق. وأنا واقفٌ هناك، أدركت مدى حماقة تدبيرتي. تعرّقت من شدة الحرارة، بيد أن جلدي تفضّد عرقاً أقدر، لا علاقة له بالطقس، واختلط بالعرق الطبيعي. كأني شخصاً في مكانٍ ما خلفي كان يراقبني وأنا أسترق النظر. ملأ التوتّر معدتي كأنه غازٌ وصعد إلى حنجرتي مهزداً بخنقي. ثم هبط إلى ذراعي وشعرت بلسعٍ في يدي. وما لبثت حتى عجزت عن تحفّل

قبل كل شيء، لم أكن أعرف ما كانت تفعل كوجيما طوال اليوم، ولم أدر بوقت خروجها من البيت. ثم ما بالي قد جنث هكذا دون استعداد؟ تهيأت لي الفرصة لتقليب الأمر وأنا أمشي. وقبل أن أنعطف، ظللت أنظر ورائي حتى أمنت من أن أحداً لم يتعقبني. وكان من حسن حظي أنني لم أصادفها، وإلا فكيف كنت سأفسر لها سبب وجودي في حينهم الذي ما زرتة من قبل قط ولن أزوره أبداً؟ اللعنة. كلما فكرت في الأمر اختلطت أفكارى وتكدرت. ولما مررت بالمدرسة وبلغت الطريق المحفوف بالأشجار وجدت راحة ما بعدها راحة، فرغبت في الجلوس إذ شعرت ببرودة فخذي في سروالي. لكنني وقفت هناك فحسب.

هاتفنتني كوجيما بعد ذلك بيومين.

رن الهاتف أول مرة في الصباح. ردت ماما لكن لا بد أن كوجيما أغلقت الهاتف بعد لحظات.

قالت ماما كأنها تخاطب نفسها «لا أحد يُجيب». أغلقت الهاتف هي أيضاً وذهبت إلى المطبخ. أبلغتني أن الغداء في الثلاجة وأن عندها أعمالاً تقضيها، ثم خرجت من البيت. نظرت في الثلاجة ووجدت طبق معكرونة باردة مغلفاً ببلاستيك. نفسي لم تشته الأكل، فاضطجعت على الأريكة. وفي ذلك الحين، رن الهاتف مرة أخرى. كانت كوجيما.

عرفتها من كيفية قولها أهلاً، لكنني لم أجد الكلام. حيثني ورددت التحية. أمضينا مدة من الوقت ننصت إلى الضجيج المنبعث من السقاعة بإيقاعٍ متردد. قالت كوجيما «الهواتف غريبة»، وقلت «أجل، لكنها أيضاً شيء مُسلٍ». ثم قالت شيئاً آخر، وقلت شيئاً أنا أيضاً. كأني صوتي لم يكن صوتي. علقت كوجيما على ذلك، فقلت شيئاً آخر أضحكها، ودبرنا للقاء قبل بدء المدرسة مرة أخرى.

سألتنى «ما رأيك في الغد؟ قلت حسناً. عزمنا على اللقاء عند درج النجاة من الحريق. وقبل إغلاق الهاتف سألتها عما إذا كانت قد هاتفنتني في ذلك الصباح. قالت

لا بد أنه كان شخصاً آخر.

شعراً لم أر كوجيما فهدت لي مختلفة قليلاً. شعرها جامع كعادته، وبدا ثوبها البني كمئزر بكفمين فضفاطين. ذكن لون ذراعيها النحيلتين كلون وجهها. وقفت هناك على بسطة الدرج بحذاءها الرياضي القديم، وبانت ساقاها النحيلتان كفضوين.

سألني «كيف حالك»؟

«بخير. وأنت»؟

قالت «بخير».

وقفت إلى جوارها ونظرت إلى البلدة. مع أنني كنت قد صعدت بالمصعد الكهربائي، تصبب جسدي عرقاً من المشي في الزواق فحسب. مسح العرق من جبيني بمنديل. دنوث إلى جوارها أكثر، عفواً بلا تكلف، كأن ذلك لم يكن بالشأن العظيم، لكنني ما تحزكت إلا عفواً. تعرق جبين كوجيما أيضاً، وكدت أمسحه بمنديلي. وأخذ مني التوثر كل مأخذ. وقد شعرت بالذنب، بل باقتراف جرم، لفا سمحت لفضولي بالتغلب علي وقطعت الطريق كله إلى بيتها.

بعيداً عن الأنظار، صرصرت أجواق زيز الحصاد، مضاعفة حصار الحرارة من حولنا.

تحدثنا عما فعلناه في الصيف. أخبرتها بأني لم أذهب إلى أي مكان، ومكنت في البيت أقرأ فحسب. سألتني عما قرأت. عددت لها ما تذكرت من عناوين. سألتني «هل كانت جيدة»؟ قلت «ليس كلها». قالت وضحكت «إنك تعاملها كواجب مدرسي». ضحكت أنا أيضاً. ثم أخبرتني أنها قد قضت من وقتها أسبوعاً كاملاً على الشاطئ.

سألتها «هل يعيش جذاك هناك أو نحو ذلك»؟

هزت كوجيما رأسها، وقالت إنها زارت أباها. «حسبث أنني أخبرتك عنه».

«قليلاً فقط».

قالت «إنه يعيش بمفرده دوماً. طلق أبي أمي عندما كنت في الصف الرابع، ثم انتقلت أنا إلى هنا مع ماما. أردت الإقامة مع أبي، غير أنه لم يكن يملك ما يكفي من

العال. ثقة أسباب أخرى أيضاً، لكن المال كان سبب طلاقهما الأساس في ظلي. خيّر لنا ألا نتحدث في هذا. لم أرك منذ وقت طويل».

قلت «لا بأس. يمكنك قول ما تشائين».

عندما قلت ذلك مظت كوجيما شفتيها. طوت يديها على الدرايزين وأخذتهما وسادة لذقتها.

«كان لأبي ورشةٌ لكُها أغلقت عندما بدأث أدرس في المدرسة الابتدائية. كنا مديونين وفقراء جداً. شعرت بذلك في كل يوم في حياتي. لم نملك مالاً كافياً قَطْ». حكّت كوجيما جانب أنفها بسبابتها.

قالت «مهما جدّ أبي في عمله فلم يكن الأمر لينجح. كان يعمل ويعمل دون جدوى .. إني أقول قولاً جدّاً إنّ الحديث في هذا الأمر الآن يوحش النفس».

قلت «كلاً، ليس كذلك». أرحث ذقني على الدرايزين مثلما فعلت هي وتركها تتابع الحديث.

نظرت إليّ كأنّ شيئاً شغل فكرها لكُها بعد ذلك استرسلت في الحديث بهدوء أكبر.

«أبي ألطف الآباء. لا يُكثر الكلام لكُنه في غاية اللطافة. وما كان خطاه عندما أغلقت الورشة. إلاّ أنّه لام نفسه على كل شيء، كأنّه كان هو المسؤول. على أنّ الأمر لم يكن كذلك، فقد عمل طوال الوقت، ليلاً نهار، ولم يشتك، ولا مرّة واحدة. كان يديم الثبشم ما دمنّا معاً. مرّات كثيرة في أثناء اليوم كان ينظر إليّ ويقول «هل أنت بخير»؟ لعلّه أراد ممازحتي أو نحو ذلك، لكنني اكتفيت بمبادلتة الابتسام. ثم كنت أذهب إلى المدرسة وأنا مغتبطة. حتى في مدرستي القديمة، لما سخر الأطفال من فقري، لم أهتم قَطْ. أخذت أبيض منديلي كل يوم، وأكوي ثوبي المدرسي مرّتين في الأسبوع حتى لا يبقى فيه أدنى غُصْن، وأنظف حذائي الرياضي كل يوم أحد. لم يكن عندنا مال قَطْ، لكنني لم أسمح للفقر بالتمكّن مني. حتى إني عقصت شعري، فلك أن تبدو حسن المظهر كأني شخص آخر. حتى لو كنت فقيراً فلا أهميّة لذلك. مهلاً، هل أهلك أغنياء؟

«نعيش في شقة. أحسب أننا عاديون تماماً».

«هل أمك تعمل؟»

«كلا، إنها تمكث في البيت».

«ذلك أمر حسن»، قالت كوجيما، وما قالته إلا لقول شيء فحسب.

حكّت رأسها، وقالت «لكن أتدري؟ أرى أن ذلك يعني أنك غني».

«حقاً؟»

قالت «نعم. ماما لا تعمل أيضاً، ما عادت تعمل. في ذلك الحين، لفا سنمكث ما آلت إليه الأمور جادلت أبي ونازعته. ولأنه لم يُكثِر الكلام، انكفاً على نفسه كلما اشتدت الأمور. ما كان جدالاً في حقيقة الأمر، بل كان أشبه بصراخ. كثيراً ما شتمته ماما ولم يرد عليها، أو لعلّه عجز عن الرد. وحتى ذلك لم يرق ماما. حسناً، لست أدري، كان الجدال يتعشر ويسوء لأن أبي لا يُجيب بشيء، فتخرج ماما عن طورها وتصيح وتصرخ طوال الوقت. وفي آخر الأمر، أخذت تقذف الأشياء، أي شيء يكون حوالينها، قائلة إن كل شيء كان خطأه هو، فتلكمه وتركه. رؤية ذلك تُذهب العقل. كانت تقذفه بأي شيء في يدها. وكانت تبكي بكاءً شديداً. أتذكر لفا فُكِّرْتُ في أن سبب ذلك كله هو أنه ما كان عنده مال. على أنني أعلم أن المال لم يكن وحده السبب. ليس مثلما فهمت. هكذا استمرّ الحال حتى كُفّت ماما عن الذهاب إلى عملها. كُنا جميعاً معدمين وأواصرنا تتفكك. ولم نُدرك ما الذي سنفعله فيما بعد.

«أتذكر ذات مرّة عندما جلستُ وماما على حاجزٍ إسمنتيّ في ساحة مواقف السيارات قرب المكان الذي سكنا فيه. كأنّ ماما لم تكن هناك.

«كان يوماً جميلاً وهبّ النسيم عليلًا. في ذلك الصباح، معاً أدخلنا الثياب المغسولة، وقلت لها إنني سأذهب لألعب لعبة اليوغو. أتذكرين عصي اليوغو؟ لكنني لفا عدت وجدتهما يتجادلان مرّة أخرى. وقد ساء الوضع تلك المرّة. قَدَفْتُهُ بكوب شاي أصابه في الجبهة. وبدأ ينزف. ذلك كان كوبي وعليه صورة يقطين أخضر أو

نحو ذلك. وما كان غريباً هو أن الكوب بعد أن أصاب أبي ووقع، لم ينكسر، بل تدرج على الأرض مئجهاً نحوي. ثم، أقسم لك بأنه انقلب إلى وضعه المستقيم من تلقاء نفسه. استطيع رؤية ذلك بوضوح. لن أنسى ذلك أبداً، أبداً.

قلت «عجباً»!

«وقف أبي هناك فحسب، بلا حراك. لم يقل شيئاً. بكت ماما حتى أنهكت، ثم خرجت. وما إن ذهب حتى ساورني شعورٌ مخيف، فقلت لأبي أن يلزم مكانه وركضت خلفها. كانت ترتدي منزرها الأحمر، وبدت في دهولٍ وخيرة، وقد جلست على تلك الحواجز. أتعرف تلك الحواجز الإسمنتية التي توضع في ساحة المواقف؟ عدوت نحو ماما وجلست إلى جانبها، لكنها كانت في دنيا أخرى. ناديتها؛ ماما، ماما، ماما. وما من جواب. جذبت ذراعها فما تحركت. دُعِرتُ وفكرت في أنه أولى بي أن أذهب وأحضر أبي، لكنني قررت ألا أفعل. ضربت ركبتيها بأقسي ما استطعت وأنا أبكي بجنون. لنذهب يا ماما. لكن ذلك لم يُجدِ نفعاً أيضاً. كأنها لم تسمعني. خفتُ أشدَّ الخوف وفكرت في ما أنا صانعةٌ إن ذهب عقلها وما عادت تقول شيئاً مرّةً أخرى. حدث هذا حين كان الجميع في الصفِّ يلعبون لعبة الجراءة على النظر إلى الشمس. هل لعبتها؟ أتعلم أنك إذا أطلت التحديق إلى الشمس غميث؟ أحدهم قرّر أنك إذا حدّقت إلى الشمس ثلاثين ثانية دون أن ترمش عيناك فلك أن تتمنى أمنية. لذا فعلت ذلك هناك تماماً وأنا جالسةٌ قرب ماما أبكي وأقول يا رب أعد إلي ماما. نظرت عالياً إلى الشمس وشخّضت ببصري. وكان يوماً مشمساً جداً. ما من غيمة واحدة. وكانت الشمس تسطع سطوعاً شديداً، وقد اشتدت حرارتها حتى ابيضّت، كمثّل يومنا هذا. ما زلت أذكر كم ألمني النظر. بيد أنني قلت لنفسني قد أحتمل ذهاب بصري، ولكن ليس ذهاب ماما. وما عرفت كم طالت الثلاثين ثانية، لكنني واصلت النظر. ارتعشت جفوني وانهمرت الدموع من عيني. قاومت ما استطعت لأبقيهما مفتوحين. وما زلت على هذه الحال وقتاً حتى سمعت ماما تقول «ما كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا». والحق أنني لم أتبين ما قالت، لكنّ صدري انشرح لفاً سمعتها تتكلم. ثم قالتها مرّةً أخرى «ما كان ينبغي أن يكون الأمر هكذا». لم أعرف بم أجيب، فبقيت ساكنة. وكأنها قالت «لا شيء بحوزتنا . . لا شيء». بيد أن كلامها لم يكن

إلي. كأن الكلمات قد خرجت عفواً من مكان ما في أعماقها».

أدركت كوجيما أنها قد أطالت حديثها فأخذت تحذق إلى الأفق. جلسنا هناك وقتاً وأرحنا ذقنينا على الدرايزين ونحن ننظر إلى البلدة من علي.

بعد حين، سألتها «هل حزن الحال في البيت عندما أبلى أبوك بلاة حسناً في عمله؟»

زفرت كوجيما ونظرت إلي.

«ليس تماماً. لم يُجدِ نفعاً ما بذله من جهد في العمل. كلما تذكّرت الأمر وجدت أن أموراً سيئة كثيرة كانت تحصل، لكنني أحببت العيش معه. لم أكرث لفقرنا. إنني أعني ذلك. شعرت بذلك حتى عندما كنا نمزّ بأسوأ الأحوال. من لا يدركون معنى الفقر تجدهم يقولون «لا بأس بفقرك ما دمت تحظى بالحب»، لكنهم لا يفقهون ما يقولون. في الحقيقة، نفذ صبر أمي فاستحال عيشهما معاً. عشنا ثلاث سنوات مريعة على هذه الحال قبل أن تتدخل خالتي. وفي آخر الأمر، قرّرا إنهاء الوضع فتطلقا».

مست كوجيما شفتيها بيدها وهي تتكلم.

«ما زلت لا أعرف سبب تدخل خالتي. حتى بعدما قرّر والداي الطلاق لم يقل أبي لأمي شيئاً. لم يلزم الأمر تدخل شخص آخر لتسويته. وفي أثناء الطلاق، بدأت ماما تواعد حبيبها الجديد. لم تُخبرني هي بذلك قط، لكنني أعلم ذلك علم اليقين. أنا واثقة بذلك».

أوماث برأسي.

«ذات مرّة، قبل أن تسوء الأمور بزمان طويل، كنت وماما نتناول العشاء، فقط نحن الاثنين. وبدأت تتكلم عن أبي. ثم تكلمنا عن سبب زواجهما. عفواً أثّرنا الموضوع. حسناً، أظن أنني أنا من أثّرت، لكنني لا أعرف السبب حقاً. لذا سألتها فحسب لماذا؟ ولما سألتها وضعت ماما غودني طعامها جانباً، ونظرت إلي، وقالت «لقد رثيت لحاله». ذلك ما قالته لي. رثت لحاله. عظم علي ذلك وهالني. ثم عدنا إلى الأكل كأن كل شيء على جاري العادة، بيد أنني ما كففت عن التفكير في ما قالته لي. ولما قمنا



يعود نشاهد التلفاز وناكل معاً. لديه غرفة صغيرة بها تلفاز صغير أسود. بعد العشاء، كنا نقصد المسبح القائم عند ناصية الشارع للاستحمام. عندما علم بقدومي لزيارته طلب من شخص في العمل أن يغيره فراشاً وأشياء أخرى. كان يتعين عليه الذهاب إلى العمل كلماً رن الهاتف، لذلك فصل قابس الهاتف مدة يومين، فقط من أجلي. ذهبنا إلى المتجر وإلى مكتبة وكذلك إلى متاجر أخرى ونظرنا إلى كل شيء. الأثاث والإلكترونيات ونحو ذلك. ارتدى أبي ثياب العمل نفسها كل يوم. كان حذاؤه بالياً جداً. لم أقدر على الكف عن التفكير في حاله، لكنه كان يبتسم كأنه سعيد جداً. وحين تمشيّنا وتكلّمنا أمسكت عن التفكير في الأمر. ثم في متجر بيع الحيوانات الأليفة، ونحن ننظر إلى الجراء والقطط، تحدث أبي عن أسماك اللّشّ والشبّوط التي كنا نربيها. أعتقد أنه تعجّب من الأمر، وما كاد يصدق أنني أتذكر كل شيء. ثم قال لم لا نقصد مكاناً نجلس فيه قليلاً؟ وقلت فلنذهب إلى البيت، لكنه قال لا بأس، لا بأس. لذا ذهبنا إلى مقهى. قال إنه يمكنني أن أكل كعكاً وأشرب صودا قدر ما شئت. وقال فلنحتفل! ابتسم تبشماً عريضاً، فقلت حسناً، وأكلت قطعتي كعك لم تروقاني. كعكة صغيرة وأخرى كعكة جبن»

هّب نسيمٌ على درج النجاة من الحريق. ما كان هناك شيء في الأفق أمامنا لتذروه الريح، فقد خلت السماء إلا من غيوم أخيرة في البعيد.

قالت لي كوجيما «مهلاً، هل تعتقد أن ثقة إلهاً؟»

كانت قد صمتت دقائق قبل أن تهمس بهذا السؤال

سألته «إله؟ أي صنف من الآلهة؟»

«الصنف القدير. إله يعرف كل شيء. إله يعرف كل شيء عن كل شيء. ذاك الذي يستطيع أن يرى خلال كل شيء، يرى أكاذيبنا، ويفهمنا حقاً».

سألته محوّلًا إليها السؤال «وأنت؟ أنتقدين أن ثقة إلهاً كهذا؟»

لم تنظر إليّ.

قالت «أعني أنه لا يلزم وجود إله، لكن إذا لم يوجد إله فهناك أشياء كثيرة لا

معنى لها. مثل العال. لقد بذل أبي قصارى جهده في العمل، ولم يكن ذلك لأجل نفسه. عمل لأجل عائلته. بيد أنه لم يكن يفلح مهما بذل من جهد. انتهى به الأمر إلى العيش وحيداً، ولم يكن يبتغي ثراءً أو شيئاً منه، لكنه بلغ من الفقر مبلغاً شديداً فلم يقدر حتى على شراء حذاء جديد لنفسه، في حين واصلت وماما العيش من دونه في رفاهة. وإني لأعجب كيف حدث ما حدث؟ إنه شيء غبي جداً أعجز عن فهمه. علي أن أؤمن بأن ثقة إلهنا ما يرى كل ما يحدث ويدرك مغزى كل شيء مررنا به عندما تبلغ الأشياء منتهاها».

لم أعرف بم أجيبها.

«عندما تبلغ الأشياء منتهاها؟ أتعنين ونحن أحياء أم بعد مماتنا؟»

أزاحت كوجيما خصلة الشعر عن وجهها وأجابتنني ببطء، مُشددة كل كلمة.

«أمورٌ سنفهمها ونحن أحياء وأمورٌ سندركها بعد مماتنا. إن هذه الأمور لن يعود لها أهمية بعد الموت. ما يهم هو أن يكون للآلام والأحزان معنى».

ما كادت تتكلم حتى لاذت بالصمت، وحذوث حذوها، وركنت إلى الصمت. نفضت قميصي الراشح بالعرق على ظهري ليحظى جلدي بشيء من النسيم.

رفعت كوجيما ذقنها وأمسكت بالدرابزين لتنهض. والآن نظرت إلي.

«لماذا يفعلون ذلك في اعتقادك؟ لماذا يعاملوننا على هذه الشاكلة في اعتقادك؟»

لم أستطع النظر إليها.

خفق صدري بقوة. شعرت بنبضي يتسارع. ابتلعت ريقى .

قالت «أتعلم ما أعتقد؟ إنهم حتى لا يفكرون. بتاتاً. إنهم يفعلون ما رأوا الآخرين يفعلونه، إنهم يتبعونهم بعماء. لا يفقهون معنى ما يفعلون، ولا سبب إقدامهم على فعله. ولست أنا وأنت إلا متنفساً لهم».

تنهدت كوجيما.

«لكن الأمر لا يخلو من معنى. عندما يصل كل شيء إلى منتهاه سنبليج مكاناً أو شيئاً لن نكون قادرين على بلوغه من دون المرور بكل ما نمز به. أتفهم مقصدي؟»  
بدا صوتها وانقأ.

«الأولاد الآخرون، باقي الصف، لا يفقهون شيئاً. يجهلون مغزى الأشياء. لا يراعون مشاعر الآخرين، ولا يفكرون في آلامهم. ما هم إلا إمعة، يفعلون ما يفعله الآخرون. في البداية، غضبت غضباً شديداً. حقاً. إنني ما حرصت على أن أبدو مثنخة إلا ليكون ذلك هو سبيلي إلى الاقتراب من أبي، حتى لا أنساه. كانت تلك هي علامتي؛ العلامة على أنني كنت معه. وتلك مسألة لن يفهمها أي شخص آخر. علامتي على أن أبي كان هناك في مكان ما يرتدي حذاء عتيقاً، وأنتي كنت معه. قد يكون لأتساخ المرء، كذلك، مغزى. لكن الأولاد الآخرين لن يفهموا ذلك أبداً. أتفهم مقصدي؟»  
أومات برأسي.

قالت «تماماً مثلما إنهم لن يفهموا عينيك أبداً. قبل أن أكتب إليك رسالة أول مرة، قرأت عن العيون الحولاء في كتاب. أردت أن أعرف. مثلاً، هل تؤلم صاحبها؟ كيف يرى العالم؟ ثمة أشياء كثيرة في العالم لا أفهمها، لكنني أردت فهمك حقاً. إنني أعني ما أقول، وهو قول جد. أول مرة رأيتك عرفت ذلك فحسب. إننا متشابهان. وأليق بنا أن نصبح صديقين»

دقيقة جلسنا صامتين.

سألها «ما الذي حملك على هذا الاعتقاد؟»

حاولت أن أبدو على سجيّتي، غير أن صوتي كان يأتي أشياء لم أستطع فهمها، فما عاد صوتي. مسحت وجهي بمنديلي.

«لأن عينيك ..».

قلت قبل أن تنهي كلامها.

«أكانت عيني هي السبب أم أنه الثنفر؟»

قالت «كلاهما. أقصد أنه لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر». بدا وجهها صارماً.  
«إنك تعاني كثيراً بسبب عينيك. أعرف أنه شيء مؤلم، لكنه أيضاً هو ما ركبك في ما  
أصبحت عليه. هذا ما لا شك فيه. ولأنني لن أتخلّى عن علاماتي فأنتي أنا أيضاً أعاني  
كثيراً. ولو لم تكن عندنا علامات لاختلف كل شيء. لذلك عرفت أنني سأفهمك أفضل  
من أي شخص آخر وأنتك ستفهمني أفضل من أي شخص آخر. عرفت ذلك. وما كنت  
بمخطئة. لذا أرسلت إليك المکتوب جئت. أنت تفكر في مشاعر الآخرين. أنت طيِّب  
جداً. ذلك يجعل الأمر مغزى. ولأننا نتألم دائماً، ندرك تمام الإدراك معنى إيذاء شخص  
آخر. لعل الأمر ليس سيئاً لي بقدر ما هو سيء لك، إلا أنني أعتقد أنني أدرك شعورك،  
ربما أكثر من أي شخص آخر».

انتقلت كوجيما من الدرايزين إلى السلام وجلست على الدرج الثالث من  
بسطة السلم. دائماً ما كان ذلك الجانب من السلام مظلماً. اقشعرّ بدني وأنا أنظر  
إلى كوجيما وهي تخطو في الظلام. من مكاني حيث وقفت تحت شمس الصيف  
القاسية، حدّقت إلى كوجيما وهي جائمة في الظلال. جلست ووضعت كوغنيها على  
ركبتيها، وذقنها بين كفيها. أخذت ترنو إليّ.  
«أحب عينيك حقاً».

قالت ذلك ببطء، وبصوت عالٍ وواضح.

قلت «لم يقل أحد لي ذلك من قبل قط. البتّة».

تابعت النظر إليّ.

شعرت براحة كبيرة أربكتني، بيد أنني قلت ما في خاطري. وما كنت متيقناً ممّا  
قلت. أصغيث إلى ما قلت. قطعاً لم يكن ذلك صوتي.

«لا يزعجك أن أكون أوّل من يقوله لك. أليس كذلك؟»

أومات برأسي غير متيقن ممّا قالت، ولم أكف عن الإيمان. وما زلت أومن برأسي  
حتى شعرت بقواي تخور وتنساب من أطراف أصابعي. فكّرت في أنني بحاجة إلى  
الجلوس.

«أعلم أن ذلك مؤلم جدًا، لكن علينا المثابرة. عندي علاماتني بسبب حال عائلتي، وأنت على ما أنت عليه بسبب عينيك. لذلك التقينا. وللسبب نفسه أمكننا أن نتحدث على هذا النحو، وأن نكون معاً على هذا النحو. سيحين الوقت الذي ينجلي فيه كل شيء خاف. حتى الأولاد الآخرون سيفهمون. سيحين الوقت لذلك، ولا ريب عندي بالأمر، عندما يستقيم كل شيء».

وقفت كوجيما وخطت بقدمها اليمنى إلى الأمام. كان وجهها وجسدها ما يزالان في ظلمة السلم، لكن طرف حذائها برز في ضوء الشمس الساطع. هبطت الدرجات قادمة نحوي. هبّ النسيم وبدأ كل شيء في الانسياب. شعرها الكثيف طفا في الهواء وارتفع مثل منديل منسوج من أنعم مائدة يمكن تصوّرها.

تنبّهت إلى أنها قد وقفت إلى جانبي تنظر إلى عيني اليسرى، وكانت قريبة جدًا. بادلتها النظر. خلعت نظارتي لأقرب عيني أكثر. فطنت إلى أن بؤبؤيها السوداءين قد خالطهما نسق وافز من درجات اللون البني. وفي أعماقها، لمحت نقطة ضوء مرتعشة، وصغيرة كوخز دبوس.

مدة وقفنا هناك، دون قول شيء، وراح كل منا ينظر إلى الآخر. ثم، متحيرة، أمسكت كوجيما بيدي اليمنى بكلتا يديها ورئنت أصابعي بأطراف أصابعها، وفردت أصابعي لتعاین راحتي، قبل أن تضغط على يدي لثحيلها مسطحة كقطيرة. كانت أصابعها رطبة من العرق، وبالمثل كان كفها. كانت يداها أبرد من يديّ وصغيرتين جدًا. أمسكت بيدي وضغطت يدها. تلك كانت أول مرّة ألمس فيها كوجيما.

خفّت صوت زيز الحصاد وغرق في الأفق، فتنبّهت إلى أنني ما كدت أسمعه إلا قليلاً. فارقت الحرارة الشديدة جلدي. نظرة كوجيما لم تشبه أي نظرة رأيته من قبل على وجهها الذي كان دانيًا جدًا من وجهي.

## الفصل الرابع

باقترب أول يوم في أيام أيلول، وقد كانت المدرسة على وشك البدء من جديد؛ شعرت بشيء يحدث في جسدي. كان كل ما أراه وأفكر فيه لا يعود حقيقياً. وكلما استلقيت على السرير شعرت بلسع في حلقي لكأله كان يُظعن بحربة. ثقل ضغط صدري، فأخذت تعاودني حُمى حيناً بعد آخر. كان يمكنني التذرع بهذه الحال لكي أبدأ الدراسة في وقت تالٍ، لكن غيابي كان سيسترعي انتباه نينوميا ورفاقه في أيام قلائل، وهو أمر حرصت على تجنبه، ذلك أن آخر ما أردته هو إثارة فضولهم.

بينما كنت جالساً عند الباب ألبس حذائي استعداداً للخروج سألتني أمي عفاً إذا كنت أعاني نزلة برد.

وقالت «حاول الذهاب، وإذا شعرت بأنك لست على ما يرام فيمكنك العودة إلى البيت».

لم يُبدِ الصيف أية إشارة إلى نهايته.

كان هذا الصيف سيستمر طوال العام إلى أن يحل محله صيف آخر في نهاية الأمر. وكان النهار، الذي لا يلين، يحتفظ برطوبة الصيف كلها وبحرارته وبأشعة شمسهِ القاسية وهي في ذروتها.

لم يتغير شيء في المدرسة. زُمرة زملاء الصف المشاغبين نفسها بعاداتها القديمة نفسها، وكذا الزُّي المدرسي، ولون البشرة، وتكاسل التلاميذ في جلوسهم على مقاعدهم، ونبرة الصوت في مناقشة الموضوعات نفسها؛ كالنزه التي قاموا بها، أو المغنيين المشهورين الذين رأوهم. اختلطت أصواتهم لتصبح صوتاً واحداً؛ هو صوت الصف.

بين الحصص، حينما كنت أهوي نفسي بملف من ملفاتي بصقت فتاة علي. وقالت أخرى «حذارِ أيها الأحول. عجباً، أما زلت حيّاً؟ وضجكت. طارت نحوي علبة عصير في الهواء. إنها الأفعال القديمة نفسها.

## تحجرت كوجيما في مقعدها.

مهما أطلت النظر إلى ذلك الرأس كثيف الشعر، فلم يكن ليتحرك أبداً. لا أحد كلم كوجيما ولا كلمت كوجيما أحداً. وأنا أنظر إلى ظهرها تخيلتني أمشي نحوها وأقول على عادة الناس في الكلام «مرحباً كوجيما، كيف أمضيت الأسبوع؟» ستنظر إلي رافعة حاجبها، ثم قد تضحك. كلاً، محال حدوث هذا. أستطيع أن أرى خضلة الشعر على شفتها الآن، والبقع على ياقة قميصها. تلك كانت علاماتها. كانت ذات أهنية. ولم يكن ثقة خطأ فيها. لو أنني أوضحت ذلك لتلاميذ الصف، ثرى ماذا سيحدث؟

«مرحباً بالجميع. أتعرفون تلك المثالب التي طالما سخرتم من كوجيما بسببها؟ أتعرفونها؟ إنها ذات منفعة، فهي سبيلها إلى تذكر الوقت الذي عاشته مع أبيها. جميعكم لديه ما يجله ويعظمه أكثر من أي شيء آخر، أليس كذلك؟ صور، أو ربما رسائل. وما هذه الصور والرسائل في الحقيقة إلا أوراق تُودعها ذكرياتنا وعواطفنا فنمنحها مغزى، وذلك ما يحيلها إلى أكثر من ورق. وبين تلك الصور والرسائل كلها، أكاد أجزم أن واحدة أو اثنتين فقط تتميز من البقية، ويُعنى بها المرء عناية لا يدركها أحد سواه. وذلك ما جعل كوجيما تبدو على هذه الحال. أعلم أنه قد يبدو أمراً غريباً، ولكن، إذا كانت الصور والرسائل تحمل هذا القدر من المعاني، وإذا أمكنكم الإفصاح عن أهميتها لكم، فهل من الغريب حقاً أن تعني قذارة المرء له ما تعنيه الصور والرسائل لكم؟ كل يرى العالم بعينه».

في أول الأمر سيتعجبون، أو في الأقل سيذعنون التعجب، ثم إذا استفضت في الشرح فسيذفرون مُبدين فهمهم، إذ يعلمون أن ذلك صحيح. ثم ستلتفت كوجيما وتبتسم خزة وسعيدة، وسيطيب لي ولها الحديث في كل ما فعلناه وحدنا في الصيف.

أحدهم اصطدم بطاولتي وأيقظني من أوهامي. كان الجرس يرن. حان وقت الدرس. دخل المعلم مرتدياً قميصاً، ياقة، برتقالي اللون، وقد سمرت الشمس ذراغيه ووجهه.

وضعت يدي داخل الموضع البارد في طاولتي واستمعت بلا اهتمام إلى ما كان

يقوله المعلم. أحياناً كان يقول شيئاً فيضحك التلاميذ. وكنت أنظر فحسب، لا أكاد أدرك شيئاً، إلا أنني لاحظت أن كوجيما كانت هي الوحيدة التي جلست ساكنة. لم تحرك عضلة واحدة. تحديقي إليها أثار في مشاعر مبهمة. طاقتي كانت صفراً. على من أكذب! بل كانت أقل من الصفر. لم أقدر على الإتيان بأي من تلك الأفعال التي تخيلتها. ولم يكن باستطاعتي فعل شيء لتحريض كوجيما. أكانت على بُعد عشرة أقدام مني؟ لم أستطع حتى مناداتها باسمها.

في الأسبوع الأخير من أيلول، وصلتني هذه الرسالة من كوجيما. نبرة الكتابة لم تشبه أي رسالة أخرى أرسلتها إلي من قبل.

تحيات وسلام. أتصدق أن الطقس ما زال حاراً إلى هذا الحد!

أنا مسرورةً بجلوسي قرب النافذة الآن. أردت أن أقول لك ذلك. وإذا، فهذه هي أول مرة أكتب إليك رسالة منذ حين. أعلم أننا نلتقي في المدرسة، لكننا كأننا لم نتكلم منذ أمد بعيد. كيف حالك؟ في البيت وفي المدرسة، أفكر كثيراً في ذلك اليوم في الصيف لما ذهبنا إلى المتحف، وفي ما قلناه ونحن جالسان على الدرج. ماذا عنك؟ أعلم أن هذا كلام غرضي، لكنك لطيف جداً. أعتقد هذا، في الأقل. عندما أفكر في الأمر يبدو مؤلماً. لا أستطيع التعبير عنه بأحسن من ذلك. أنا وأنت تحدثنا في أمور شتى، وآمل أن نحرص على هذا، تماماً مثلما فعلنا في الربيع. إنني أود حقاً أن نستأنف الكلام، وأن نتحدث في أمور أكثر. ماذا عنك؟ لعلك تفكر: «ما الذي تبقى لتحدث فيه؟» لكنني أقسم أننا إذا التقينا مرة أخرى فسيكون عندنا كلام كثير نقوله. ما رأيك أن نلتقي عند درج النجاة من الحريق ونتحدث أكثر؟

صحيح، أردت أن أخبرك بأنني أخيراً تعاركت وزوج ماما الجديد (وإن لم يكن هناك ما هو جديد يتعلق به، كإنسان أو في صلته بنا). حسناً، الحق أنه لم يكن عراكاً. شجار ليس إلا. لكنني، في تلك اللحظة، قلت كل ما دار في خلدي. وبدأت على وجهه تلك النظرة الحمقاء، كأنه يعرف كل شيء. كان يبتسم طوال الوقت. لم أغضب في حياتي غضباً شديداً هكذا قط. وفي هذه الأثناء، استمع إلي دون مقاطعة وهو يبتسم تبسمه الأبكم ذاك، ثم ألقى علي إحدى محاضرات حياته وبدأ مغروراً جداً بها.

لم أكتب عن التفكير في أن هذا الرجل ربما لم تلح له قطة فرصة التفكير في أي شيء مهم حقا.

يحزنني التفكير في الأمر على ذلك النحو. أعني، ربما لم يكن خطاه. وقد فُكِّرْتُ في أنه ربما يحسن بي أن أسامحه. وإلني لأسأل نفسي عفا إذا كان هو أيضاً ضحية. هكذا فُكِّرْتُ.

أصدقك القول إنني فُكِّرْتُ أيضاً في أمر الأولاد في المدرسة، فمثلما نحن ضحيتان قد يكونون هم ضحايا لشيء أكبر منا جميعاً.

إنني لأرثي لحالهم عندما يسخرون مني ويشتمونني أو يلاحقونني في الحَقام. بيد أنني إن قلت لهم ما أقوله لك لن يفهموني. ومثلما تعلّمتُ مقاً فعلوه بي، أحسب أنهم أيضاً بحاجة إلى التعلّم، لكن ليس مني. يجب أن يكون ما يتعلّمونه عاقبة لأفعالهم. وإلا فلن يفهموا أبداً. أخرى بهم أن يتعلّموا عن أنفسهم مقاً يفعلونه بي. وحسبي من ذلك أن تكون حياتي خليقةً بالعيش. على أية حال، يمكنني الحديث في أفكاري بلا نهاية، لكن هذه الرسالة قد طالت كثيراً. أعتقد أنني كنت أكتب منذ خمس ساعات. إنني أودّ الحديث حقاً. معذرةً على ثرثرتي. أليقُ بي أن أتوقّف هنا. إلى لقاء.

لم تكتب إليّ كوجيما رسالةً بهذا الطول من قبل. أمضيت عشر دقائق في قراءتها.

حاولت الردّ عليها لكنني لم أستطع. ذكّرني بأمور كثيرة قالتها لي آخر مرّة لفّا التقينا. فهمت ما قالت، غير أنني لم يكن لديّ ما أقاسمها إيّاه. ولكي أتجنّب السطور الفارغة على الورقة، فُكِّرْتُ في كوجيما وفي نفسي. بعد مدّة، سحبت حافظة القاموس من رفّ كُتُبي وأخرجت جميع الرسائل التي كتبتها إليّ وقرأتها. كانت كلّها مفعمةً بالحياة، كأنّ كوجيما كانت قربي تعبّر عفاً يجول في ذهنها. وأنا أقرأ ألفيئني أسأل نفسي كيف بدت رسائلي لها، وأي مزاج نقلته إليها؟ وما الذي كتبه؟ تذكّرت أنها كتبت إليّ ذات مرّة تقول إنّ المرء إذا أرسل رسالةً إلى شخص ما فإنّ أمرها يخرج من يده، فلا تعود الرسالة له، وإن كان هو من كتبها.

أعدت رض رسائليها في حافظة القاموس، واستلقيت على فراشي، واستغرقت في



## الفصل الخامس

في مطلع تشرين الأول، توفيت الاخت الكبرى بالتبلي لماما، التي هي بمقام خالتي، وقد ذهب إلى جنازتها، فكانت تلك أول جنازة أحضرها في حياتي.

كانت خالتي هذه، التي لم ألتقها قط، تكبر ماما بسبع سنوات، وكانت بلا زوج وبلا أبناء.

تعذر مجيء أبي بسبب العمل، لذا انتهى الأمر إلى أن أكون أنا مرافق ماما. لم أكن أعرف شيئاً عن المرأة هذه. قال لي أبي إنني لست ملزماً بالذهاب، لكنني شعرت بأن ماما ستحزن إذا ذهبت بمفردها. ولما قلت لها إنني سأرافقها نبهتني إلى بُعد المكان، بيد أنها، أيضاً، أبدت ارتياحها لمرافقتي إليها.

كانت الجنازة حدثاً هادئاً. اجتمع عشرات أو نحو ذلك من الأقارب في قاعة المناسبات في مركز اجتماعي. قعدنا القرفصاء وطأطأنا رؤوسنا، وظئب المكان بالبخور، وتلا راهب نضاً من نصوص السوترا، مختتماً كل فقرة بقرع جرس، ومُطقطقاً حُرزات منسجته. ثم حان دوري لإشعال عود بخور. ومن حين لآخر كنت أسمع أناساً يبكون. وقد بقيت مُظرباً أحرق إلى ركبتني طوال الوقت.

انتهى القداس وأزف الوداع، فوضع الجميع زهوراً في التابوت. نظرث إلى داخله. كانت شفتاها منفرجتين، وقد سدّ أنفها بقطن أبيض. تعذر وصف وجهها، ولم أعرف ما إذا كان ذلك لأنها ميتة أم لأنّ خلقتها كانت على ذاك النحو. وأنا أرى، أول مرة، جسداً ميتاً اعتراضي دعر أو لعله كان اشمزازاً، ولكن، لأنني لم أرغب في الانسحاب، أردت أن أعرف سبب اختلاف هذا الجسد عن الجسد الحي، ولم أستطع الإشاحة بوجهي.

حاولت التفكير وقتاً، ولكن كان واضحاً أنه لم يكن عندي ما أفكر فيه. وقد أعانني ذلك على تذكر أنني إنما أودع امرأة غريبة لا تكاد تمت إليّ بصلة، فخفف ذلك عني وأراحني.

بعد إخراج التابوت، قام الأقارب إلى تناول الغداء. لم ترغب ماما في البقاء فعزمنا

على العودة إلى البيت، ولم نحضر حرق الجثمان. لم يُبعد أقارب ماما عيونهم علي، وكلما بادلتهم النظر كانوا يعرضون علي. ولما سلّم بعضهم عليها عزفتهم بي، وكانوا ذمّين ومهذّبين. لم أسأل عمن كانوا ولم تكثر ماما لإخباري. رأيت أمها، أو بالأصح جذّتي بالثبلي. عرفتها ما إن لمحتها، لكنها لم تقل شيئاً لماما بعد الجنازة، ولا لي بطبيعة الحال. خرجنا قبل توزيع الطعام المُغلب.

في طريق العودة بالقطار، قالت ماما «نحتاج إلى ملح، لننثره قبل الدخول إلى البيت».

«لماذا؟»

«للتطهير».

بصمتٍ جلسنا في القطار المتمايل. بان التعب على ماما. أمّا بخلاف ذلك، وبخلاف كوننا في طريقنا إلى البيت عائدين من جنازة، فقد كان أصيلاً رائعاً. وقبل ذلك، لمّا كنّا ننتظر القطار، ذهب فكري إلى الوجه الذي رأيته في التابوت، وتخيلت جلده وتجاعيده، لكنني، عندما انطلق القطار، نسيث كل شيء. ذكرني القطار المتذبذب بكوجيما. كان نور الشمس المتدفّق إلى الداخل والطبيعة التي مررنا بها مختلفين، وسرعان ما حملتني الذكرى إلى ذلك القطار المنطلق في الصيف، فتذكرت كل كلمة قالتها كوجيما عندما كانت جالسةً على المقعد إلى جانبي.

سألني ماما بغتةً «كان ذلك غريباً، أليس كذلك؟»

صوّتها أعادني إلى الواقع. انتظرتها لتكمل قولها، لكنها لم تقل شيئاً آخر.

وفي آخر الأمر، سألتها «ما الذي كان غريباً؟»

قالت «لست أدري. أحسب أنه اليوم كله».

«أكان غريباً؟»

قالت «جداً. لقد استنفد قواي».

صمتت ماما بعد ذلك. أغمضت عينيها ولم تتحرّك.

ترجلنا في محظنتنا، وفي طريقنا إلى البيت مررنا بمتجر. وبينما كنا نجول في المتجر نظر الزبائن الآخرون إلى ماما وهي في ثوب الحداد وإليّ وأنا. في ثوبي الرسمي، ولم تعرهم ماما انتباهاً وانصرفت إلى ملء سلّة بالسبانخ والبصل وشرائح الخنزير. سألتها عفاً إذا كان لائقاً دخولنا المتجر قبل نثر الملح، فقالت إنّ المتجر كبير ووجودنا على هذه الشاكلة لن يلحق به شوماً. حملت كيس البقالة. ولما عدنا إلى بناية شقّتنا وكنا ننتظر المصعد الكهربائي شكرتني ماما على مرافقتي لها، من دون أن تنظر إليّ. قلت لها إنّني ستسرّني مرافقتها في المرة القادمة. تنهّدت وعانقتني. بدت مرتبكة لكنها ابتسمت لأجلي.

أنهكني مشوار الذهاب إلى الجنازة والرجوع منها، وكنت في غاية التعب، فمكثت في البيت ولم أذهب إلى المدرسة ثلاثة أيّام. فكّرت كم سيكون جميلاً لو أنّي أستطيع البقاء في البيت دوماً، لكنني كنت أعرف أن لا سبيل إلى ذلك.

بعد الجنازة بأربعة أيّام، خرجت من البيت باكراً كالعادة وقطعت الطريق المحفوف بالأشجار متّجهاً إلى المدرسة. استحال لون التربة الممتدّة بين الأشجار إلى بُنيّ مشبّع بالرطوبة. تنشّقت بعمق لكنّ رائحة المطر كانت قد تلاشت. ومع ذلك، كانت التربة رطبة وتكاد تبتلع خطواتي، منذرة بغوص حذائي في الأرض.

لا بدّ أنّها كانت قد أمطرت في وقت ما ليلاً. لم يكن هناك أحدٌ على الطريق. ومن بعيد، سمعت صوت محرّك يدور. مشيت بتثاقلٍ صوب المدرسة كأنّي أجزّ الشارع بأسره وراني.

لم يكن ثمة أحدٌ واقفاً عند المدخل، وما جرت العادة بأن يكون أحدٌ هناك في هذا الوقت المبكر. وقد ثرّكت البوّابة مفتوحة قليلاً. قطعْتُ فناء المدرسة متّجهاً إلى المبنى القائم في الخلف. ليس من أحدٍ سواي. وفي منتصف الطريق، أدركت نظري إلى المبنى الذي مررت به. كان منتصباً هناك مثل هيكلٍ عظيمٍ بالٍ لمخلوقٍ ضخم. وكانت المنضّة التي في منتصف الساحة معوجة ومقشرة الطلاء كأنّها جزءٌ رثٌّ ومبتورٌ من الهيكل.

دخلت الصف وجلست إلى طاولتي. ولما قرّبتها إليّ بدت حركتها مختلفة. وضعت يدي بداخلها فشعرت بأليّ أمش ما يشبه قطعة قماش ممزقة. جنوت لأستبين الأمر فأدركت أنّ الطاولة كانت كلّها محشوة بقمامة. سحبت قطعة القماش فسقطت حزمة ثقيلة على الأرض وانفكت من تلقاء نفسها .

كانت هناك كسر خبز بانّ بدت كورينقات عُمرت في نشاء الذرة، وأشياء أخرى كأنها يرقات . . لكن تبين أنّها كانت حبات يوسفي صغيرة مجففة قد علقت بثياب رياضية مكدسة ونعالٍ مدرسية عرفت أنّها كانت لي، وكان بينها مفاتيح، ودمية محشوة على شكل حيوانٍ غريب، وقناع وجه، وكومة منشورات، وبطاطا نابطة براعمها، وكتب مكتبة، وفرشاة تنظيف، وممحاة السبورة، وعلبة حليب فراولة لا بد أنّها كانت ممتلئة إلى منتصفها لأنّ الحليب كان يقطر من القصة. كانت الرائحة كريهة جدًا. أملت الطاولة ونظرت بداخلها. كان هناك المزيد. كيس بلاستيكيّ أسود تساقطت منه فوط صحيّة وقطنيّة مستعملة.

وقفت هناك أنظر إلى ما خرج من طاولتي. ثم جلست على مقعدي وحذقت إلى الفوضى التي تراكت حول قدمي. لعنكم فكّرتم في شعوري وأنا جالس هناك، فمسند الظهر وأجزأوه المعدنيّة كانت تحفر جلدي. ولم أجد سبيلاً مريحاً للجلوس.

لا أعلم كم من الوقت مضى وأنا أحنق ببلاهة إلى القمامة من حولي، لكنني في لحظة سمعت أحدهم قادماً في الرواق. لسبب ما، حقنث أنّه كان تلك الفتاة التي رأيته في آخر يومٍ قبل بداية الصيف فحبست أنفاسي. وكلّما اقتربت الخطوات تسارع نبضي، وتذكّرت شكل ثوبها المدرسي وشعرها المرسل والاشمزاز الذي بدا على وجه موموز. اعتراني التوتّر. بيد أنّها كانت فتاةً أخرى. نظرت إلى طاولتي وأشاحت بوجهها في الحال، وضعت حقيبتها وخرجت من الصف. كثيراً ما تلا اسم هذه الفتاة اسمي في قائمة الحضور والغياب. لم أتحرك بعد خروجها. وفق الساعة أعلى السبورة بقيت عشر دقائق على مجيء الجميع. نهضت وجلبت كيساً بلاستيكيّاً من خزانة مستلزمات التنظيف قرب الباب والتقطت كلّ الأشياء من حوالى طاولتي. جاء رفاق نينوميا مع حشد الأولاد الآخرين. أحدهم ضرب رأسي بملفه. ضحكوا

هازئين وسألوني عن سبب رانحتي الكريهة جدًا.

سأل أحدهم وكان لا يني يضحك «أيها الأحول، ما الذي حل بطاولتك؟ جلست ساكناً ولم أجر جواباً.

«سمعنا عن موت أحد من أهلك»، كان ذلك هو الفتى الذي ضربني بعلفه.  
«تقبّل .. لمزة أخرى ما كانت تلك الكلمة؟» سأل تلميذاً آخر كان إلى جواره.  
«إنها تأبين».

«كلأ، رثاء».

كانوا يتسلّون ويمرحون. الكلمة التي أشكلت عليهم كانت «تعازي»، إلا أنه لم يكن أنا من سيقولها.

نينوميا، الذي شغل بإضحاك فتيات على بعد طاولات، أقبل نحونا. ولقا دنا مئي غطى أنفه بيده وتأوه كأنما يوشك على التقيؤ.

«ما هذا؟ أية رائحة ننتبه تلك؟» لوح بيده أمام وجهه. «أتبغي قتلنا يا هذا؟ اغتسل قبل مجيئك إلى الصف. ألا تستحم أبداً؟»

خف الجميع لذلك وطربوا.

أضاف أحدهم قائلاً «وكنث أحسب أن تلك الفتاة المدعوة بكوجيما هي القذرة».

تجمد في مكاني لذكر كوجيما، وشعرت كأني أحضن كرة ثلج.

قال نينوميا عاقداً ذراعيه «حسبنا واحد في الصف. أمّا اثنان فسيكونان وبلاً على الحياة».

نظر إلي كأنه يروزي.

«أنت مخيّر بين أمزين. تتعزى وتغتسل في النافورة حالاً وإلا لعبنا لعبة صغيرة بعد المدرسة. القرار بيدك».

جلست على مقعدي ولم أقل شيئاً.

«عدم الجواب يعني أنك اخترت اللعبة».

لم أجر جواباً.

«فلتكن هي اللعبة إذاً. كم أتشوّف إليها! قرأت عنها في كتاب أثناء غيابك عن المدرسة. ستعجبك».

ضحك. وكذلك فعل الجميع.

قال «لا تنصرف. إذا فعلت فسينتهي أمرك».

حذقت بصمت إلى سطح طاولتي.

لم تلبث بضع كلمات بيضاء تملأ السبورة حتى اختفت. ما نفع ذهابي إلى المدرسة إذا عني ذلك مقاساة هذا كله؟ مهما أمعنت في السؤال فلن ألقى جواباً.

إلا أنني إذا امتنعت عن الذهاب إلى المدرسة، إذا كان باستطاعتي الامتناع حقاً، فلا بد أن أعلّل ذلك لماماً.

توهّمْتُ أنني أدعو ماما إلى الجلوس لأبلغها بذلك، لكنني عجزت عن متابعة توهّمي. لم أشأ أن تعرف بما أعانيه من تنمّر. وقطعاً لم أشأ أن يعلم أبي بذلك، مهما حصل. وإن علم، فليس بمقدوري تخيل ما يمكن أن يحدث. أعلم أنني إذا أنبأتهما بحقيقة الأمر فلن يريد أن يكون لهما شأنٌ بي. وإذا عرفا أنني صريع التنمّر فلن أكون، في نظرهما، إلا شخصاً قد انتهى أمره.

فكّرت في الانقطاع عن المدرسة، إلا أنني جهلْتُ كيفية تدبير الأمر. على الجميع إكمال الدراسة الإعدادية، فذاك هو القانون. وهل كان الانقطاع جائزاً؟ حتى إن أذنت لي ماما بذلك، فما الذي أنا فاعله بحياتي؟ لم يكن لهذا الرأي أن ينتهي بي إلى خير. إذا لم أكمل الدراسة الإعدادية فلن يُتاح لي الانتقال إلى المدرسة الثانوية، وأنى لي أن أحتمل عاماً آخر من العذاب! لو أمكنني العثور على عمل لتدبّرت أمري في ما بقي لي من عقود أعيشها. ولكن من ثراه سيُشغّلني عنده؟ إنني كلما تفكّرت في هذا

السؤال أسقط في يدي. هب ألي انقطعت عن المدرسة زمناً، ثم تدبرت أمري وأتممت الدراسة الثانوية، بل الكثيرة أيضاً. قد أسلم من الشر، مهما كان جنسه، ولكن لا ضمان لي بأني سأكون آمناً على نفسي دوماً. وما دمت أبدو بمظهري هذا، بهذه العين، فما أنا إلا هدف مقصود على الدوام. وماذا لو كانوا بانتظاري يترنصون بي أينما ذهبت؟ فُذِرَ شنيع يكمن لي في الطريق متحياً مروري.

أوشك اليوم على الانتهاء، ثم ولّى وأدبر. اضطربت وخفت ولم أقدر على الجلوس ساكناً.

انتظرت إلى حين خروج الجميع. ثم تحيئت غفلة نينوميا ورفاقه وجذبت حقيبتني وشققت دربي بين الأجساد الخارجة من الصف. تقبّض بطني وتشنّج، فسألت نفسي عما إذا كان سبب ذلك هو الطعام الذي تناولته في الغداء، لكنني لم أذكر أنني تغذيت. مشيت بين أرتال التلاميذ الموجهة إلى النادي شاقاً طريقي في غمرة القيل والقال. كان الهروب غاية همّي، ولم يسعفني الوقت للتفكير في ما أنا صانع بعد ذلك، دع عنك في الغد.

انعطفت وأنا منكس الرأس فكثت أصطدم بكوجيما.

جفلت وتراجعت، ثم أدركت أنني كنت أنا. أطبقت شفتيها وتبسّمت لي بعينيها فقط. وكنت أتنفس بمشقة حتى سمعني أزفر زفيراً، وشعرت بحرارة رطبة حول عيني.

حملت كوجيما سلة مهملات منبعجة تُشبه برميل زيت صغير. وكثيراً ما كانت هي من يخرج سلة المهملات. حكّت بطنها بكفها الأخرى.

«كوجيما».

تلَفُظت باسمها. بصوت مرتفع وبيّن.

كانت تلك أول مرّة أنطق باسمها في المدرسة.

التلاميذ السائرون في الرواق لم يلاحظوا ذلك. وضعت كوجيما سلة المهملات على

الأرض وتردّدت في تركها. أدامت النظر إليّ وهي تدرك أنّ التلاميذ حولنا. تنفّس  
نفساً طويلاً وناديت باسمها مرّة أخرى. كوجيما. وناديت مرّة أخرى. عبست كأنها  
تسأل ما الخطب، لكنها بين خفض بصرها وتلفتها لترى من القادم نظرت في عيني.

لحسّ شفتي وخرجت الكلمات بمشقةٍ كأني أنتزعها انتزاعاً وقلّث «معدرة، لم  
أستطع الردّ على رسائلِك. فكّرْتُ كثيراً و...»

إلا أنّ عيني كوجيما قفزتا إلى شيءٍ خلفي. ألمّ حادّ انغرز في ساقي. وأنا أسقط  
جهدت لأنحرف عن كوجيما وأنعطف عنها، فوقعْتُ على كفتي وارتطمت عظام  
وجنتي بالأرض.

وقف نينوميا بالقرب من الصبي الذي ركّني. بدا ممتعضاً.

«إلى أين تحسب أنّك ذاهب؟»

اقتادوني عابرين بي ساحة المدرسة إلى الموضع القائم أمام القاعة الرياضية.

جرت العادة بأن يغضّ هذا الموضع بالفرق التي تتمرّن على تمارين الإحماء  
والتلويح بمضاربها، أو بالتلاميذ الذين تحتاج نواديهم إلى استعمال القاعة الرياضية،  
إلاّ أنّه لم يكن هناك أحد. من مكبّرات الصوت صدحت موسيقى العودة إلى البيت  
مثل هدهدة، ومن بعيد بلغت مسمعي أصوات الفتيات وهنّ يتصايحن ويمرحن  
ويتشاجرن.

عجبت أين غاب الجميع، لكنني فجأةً تذكّرت. مرّة في الشهر تُوقّف جميع أنشطة  
نوادي التلاميذ والأنشطة التي تُمارَس خارج الصفوف كي يعقد المعلمون اجتماعهم،  
فيخرج التلاميذ جميعاً من المدرسة فور فراغهم من الدروس.

كان الباب الأمامي المفضي إلى القاعة الرياضية مغلقاً. لا عجب. انعطفنا إلى  
يسار المبنى ودرنا حول واجهته المائلة ووقفنا عند بابٍ خفيّ غُلم بعلامة مخرج  
طوارئ، وقد بدا أنّه من ألومنيوم رقيق. أداروا المقبض ودخلنا بأحذيتنا، وكانوا  
يدفعونني من كتفي سترتي. ومن عند الباب صعدنا خطواتٍ معدودةً إلى جناح  
المسرح في الناحية الخلفيّة من القاعة حيث تدلّت الستائر من السقف. فاحت رائحة

الغار من النسيج القديم. ولما توقفت دفعوني من الخلف دفعاً شديداً حتى تعثرت وكدت أقع. انزلت حقيبتني من كتفي وسقط الكتاب الذي كان في الجيب الأمامي المفتوح عند قدمي، فسارعت إلى إعادته إلى الحقيبة.

كنت قد زرت القاعة الرياضية مرّاتٍ لا حصر لها، لحضور الاجتماعات وحصة الرياضة، إلا أنّها بدت الآن مكاناً لم أألفه من قبل. علا السقف غلواً شديداً، أعلى مما كنت أعرف من قبل، وبدأ المكان كهفاً.

اشتدّ نشاط الصبية، فما كادوا يدخلون حتى بدأوا يتقافزون في الأرجاء. هتف أحدهم فزجره نينوميا. ثم تبدّل وقع خطاهم وتردّد صدى أصواتهم الهادئة وضحكهم المخنوق. اتّخذ الصوت ثقلاً غريباً، كأنما صار أضخم. وكلّما اصطدم بالجدران ارتدّ.

سمعنا صوتاً آتياً من مخرج الطوارئ. صمت الجميع ونظروا، ولم يكن هذا إلا موموز.

من مكاني، حيث أقف، رأيته يدخل ويفلق الباب، وبعد قليل سمعت المعدن يصلصل وهو يوصده.

لما رأى نينوميا موموز بشّ وجهه وتبسّم ولوّح له مسلماً. لم يجب موموز وأقبل نحونا واضعاً يديه في جيبي سترته. ظننتُ أنّي سمعته يصفرّ أو لعّني توهّمت ذلك. كأنه لمحني، أو ربّما مرّة أخرى، كان عقلي ينسج حيلاً وأوهاماً. وجودي في مدى بصر موموز لم يكن ليثبت أنّه رأني. كانت عيناه مفتوحتين لكنّهما خاليتان من إثارة أو عاطفة. بوجوده هو ونينوميا، كانوا جميعاً سئة صبية.

مشى نينوميا إلى المدخل الأمامي حيث كانت الستائر الثقيلة مُسدلةً لنأى يرى ما بالداخل. مَدَّ يده وراء كومة خضِرٍ مفشّشاً عن شيءٍ ما. ولما عثر على شيءٍ يشبه القناع أقبل علينا به في يده.

قال لي وهو يحمل ما يشبه كرةً فارغةً من الهواء بها شقٌّ «البس هذه. سنلعب كرة قدم أو شيئاً من ذلك».

كانت كرةً طائرة. وجدّني أهزّ رأسي.

وطفق يذُور الكرة المنكشمة بيديه، ثم قال «الحق أنني أردت كرة قدم حقيقية، لكن ذلك غير موجود. واضح أن من غير اللائق أن نلعب كرة قدم هنا. أليس كذلك؟»  
حشرج نينوميا.

«كرة القدم أغلى من كرة الطائرة، وقد وضعوا أرقاماً على جميع كرات القدم. وبعد التمرين، إذا نقصت كرة واحدة، فإنهم يبحثون عنها حتى يعثروا عليها. وإذا لم يعثروا عليها، فإن جميع طلاب السنة الأولى يُعاقبون».

أدخل إصبعه في شق الكرة وقلبها فظهرت بطانتها إلى أعلى.

«تعلم أنه يسعني أن أكون في غاية اللطف. لهذا تحصل على كرة طائرة. لا يسهل الحصول عليها مثل كرة تنس الطاولة، لكن هناك عدداً كافياً منها. وكرة الطائرة، مع ذلك، أحب الكرات إلي. نسيجها حسن. وهي لطيفة وناعمة على البشرة، مثل ضمادة...».

نظرث إلى قدمي نينوميا.

«قرأت كتاباً في العطلة. لا أعلم ما حملني على ذلك. ليس لأنني لا أقرأ. إلا أنني في بعض الأحيان لا أجد لذلك أهمية. على أية حال، قرأت الكتاب كله. ماذا عنك؟ أحسب أنك قارئ عظيم».

كان يسألني.

«أوقعت ذلك الكتاب قبلاً. ما كان ذلك؟ هل هو كتاب حسن؟»

لم أجز جواباً.

«لا تروقني قراءة الروايات، ولا القراءة عن حياة الآخرين ونحو ذلك. من يبالي؟ أقصد أنك تعيش حياتك، أليس كذلك؟ وستنصرف إليها ما إن تضع الكتاب جانبا. فلم تحيد عن دربك لتعلق في حياة مُخلّقة؟»

لم أزل عاجزاً عن الإجابة.

«القراءة كالسحر. ليست سحراً حقيقياً، بل سحر زائف. ماذا فيها حتى يحبها المرء؟ إنها أحمولة. خدعة. والحق أن شيئاً لن يتغير. كلاً، لعل القراءة تغير الأشياء. بل إنها تزيدها سوءاً، وتفسد يومك. على أية حال، ما هي إلا أكاذيب. إذا لم تكن سحراً حقيقياً فما الجدوى؟ إنها مضجرة فحسب».

أمرني نينوميا بخلع ربطة عنقي، ثم أعاد النظر وأمرني بخلع نظارتي كذلك. أوعز إلى أحد رفاقه بإبعادها عن وجهي ووبربط يدي خلفي بربطة العنق.

قال ضاحكاً «ليس بإحكام». وقف موموز على بعد خطوات عاقداً ذراعيه ناظراً إليّ وهو يمرر سبابتة على شفته.

قال نينوميا «كرة قدم بشرية أعلم أن تلك هي كرة طائرة، لكنك تفهم مرادي. سنركل، ولذا فهي أقرب إلى كرة قدم منها إلى كرة طائرة. أول من يدخلك إلى المرمى يفوز».

نظر إلى الآخرين.

«سيلعب كل منا ضد الآخر، والخاسر يخرج من اللعبة. أنتما أولاً، ثم أنتما أيها الرفيقان، ثم أنا وموموز والفائز يواصل اللعب».

صفق بيديه.

قال «حسناً. اخلعوا أحذيتكم. ضعوا الأهداف».

أثجه بعضهم إلى الناحية المقابلة من الملعب، خلعوا أحذيتهم ووضعوها على بعد ستة أقدام بين بعضها وبعضها الآخر، مشكلين زوجاً من الأهداف المؤقتة.

لويث معصمي ولم أستطع تحرير يدي. وما عساي أفعل إذا حررتهما؟ سيقيدونني مرة أخرى، أشد عن ذي قبل. تقاطر العرق من إبطي إلى ظهري، وحتى على فخذي.

«يا أحول، أريدك أن تكون أفضل كرة. كن كائنك كرة. أتعرف ما أقصد؟ خيز لك أن تتحرك كما تتحرك كرة حقيقية».

مظ نينوميا الكرة ممسكاً بشقها ووضعها على رأسي. ضغطها بشدة لكنه لم يستطع

جذبها على صدغي، فلم تسع رأسي.

قال «أذناك كبيرتان. يا رجل، إلك تثير غضبي».

أقبل موموز. ودون أن ينبس بكلمة جذب الكرة وفُتق الشق لتتسع فتحتة ثم مظل الكرة وأعادها فوق رأسي. صرّت وهو يثبتها على جمجمتي حتى امتلأ أنفي برائحة الغبار وما عدت أرى. تشلج جسدي وتقنّض ككتلة، وفي جبهتي رأيت صوراً متحركة مضطربة تومض. هزّزت رأسي كالمجنون وحاولت الركض، لكن أحدهم ركل رجلي وصاح بي لأقف. نزلت بطانة الكرة إلى ما فوق ذقني، تاركة شفّتي السفلية مفتوحة للهواء.

قال نينوميا متظاهراً بالتعجب «كرة طائرة أصغر ممّا تبدو. حسناً، فلنبداً».

Telegram:@mbooks90

اختفيت في ظلمة لم أعرف لها لوناً، ولما عجزت عن الوقوف شرعت أدور وأتلوّى بحثاً عن حماية. ولم أدر ما حلّ بجسدي، إذ صعدت فوق كاحلي حمم فاترة، سوداء ورصاصية، وتسَلّقت ساقِي. دخلت فمي وملأت رئتي. وما لبثت حتى أذابتني فاعلة فعلها في جوفي. حرّكت ساقِي وهممت بالهرب فاختل توازني ووقعت. حاولت الوقوف مستنداً إلى ركبتي فضربوا ظهري وطرحوني على الأرض. كنت أصارع بين ضحكهم المخنوق ولهائهم، وظللت على هذه الحال أجهد للوقوف وهم يصرعونني في كلّ مرّة.

قال نينوميا «لست أفضل كرة رأيّتها، لكن لا بأس بك»

أمسك أحدهم بذراعي وأنهضني، ثم أخذ يجزّني وأنا أرفس بقدمي رفساً. صاحوا بي لأعتدل واقفاً.

«هلموا بنا! فلنفعل هذا. سأقول هيّا وابدؤوا. تماماً مثلما نفعل بكرة قدم. اركلوا ركلاً لانقاً يا أولاد».

ابيضّت مفاصل أصابع يديّ المقيّدين، وارتعشت ركبتي حتى كدت أسمع اهتزازهما. ثبث كلّ عضلة في وأغمضت عيني واصطكّثت أسناني حتى شعرت بالدم ينبض في جبهتي. لا شك أن وجهي كان قبيح المنظر، فقد شعرت كأن شيئاً كان





ظل وقتاً يفكر.

ثم قال «اسمع، بعد ثلاثين دقيقة اخرج من حيث دخلنا واقصد غرفة الأجهزة السمعية والبصرية. خلفها حائط أقصر من الحيطان الأخرى. تسلقه واغرب من هنا. علينا أن نتيقن من ذلك. تستطيع القفز إذا حاولت، فلا خيار أمامك. أتفهم؟»

كنت جالساً في اعتدالٍ لكتني نكست رأسي ونظرت إلى بركة الدم أمامي. تلمخ صدر قميصي بحمرة قانية وأما سترتي فما عرفت لون الدم عليها. مشى الصبية متناقلين صوب الباب، لكن نينوميا استدار كمن تذكر شيئاً.

قال «تنظف قبل أن تخرج». ثم أشار إلى الباب وهز رأسه «ولا تستعمل الماء الذي في الخارج. بل استعمل الماء الذي هنا. تنظف ثم اغرب».

بعد أن أغلقوا الباب وراءهم عدت إلى الاستلقاء على ظهري وحاولت التفكير وأنا أحدى إلى السقف.

ولم يُسفر التفكير عن جدوى.

لم أقدر إلا على فتح فمي لأتنشق الهواء وأزفره. وبينما كنت كذلك إذ بجسدي النازف يرتفع إلى السقف ويلتحم بالعوارض الخشبية شبكية الشكل.

جسدي الذي على السقف استدار ليواجه جسدي المستلقي على الأرض، ثم بدأ في النزول. رأيثني لابساً ثوبي المدرسي ونظّارتي وقد غشيني الدم بدءاً من أسفل عيني، وكنت أقترّب شيئاً فشيئاً. وعندما لم يكن بيننا إلا سثة أقدام توقّف جسدي في الهواء.

جسدي الطافي بلا حراكٍ كان ينظر إليّ دون أن يتفوّه بكلمة. كانت عيناه خلف نظّارته تخينثين كالهلام، بلا أثّجاءٍ بقدر ما يمكنني القول. غمغمت قائلاً له إلام تنظر؟

وأنا أراني على هذه الحال أدركت مدى ضآلتي. نحل معصماي وكاحلاي وعنقي نحولاً شديداً، ولم يكن في أيّ منها أثر لقوة. لم تلائم سترتي كتفي، وقميصي الذي استحال صدره قرمزياً ارتفعت أطرافه عن موضعها. وأوسع بنطالي وطلال. بدا جسدي

معلقاً في السماء بزاوية غير ثابتة.

وبينما كنت أنظر إلى جسدي المعلق في الهواء، انفرجت شفطي في ذلك الجسد. فطنت إلى أنني قلت شيئاً، غير أنني ما كدت أستبين حركة شفطي وما قدرت على قراءتها. بعد ذلك، انفرجت أسارير وجهي في جسدي المعلق فوق. شعرت بأنه تبسم لي. كأن نسختي الملطخة بالدماء فوق رأسي تبشمت حقاً. لم أعرف مغزى ذلك فبقيت مستلقياً هناك أبادل وجهي النظر. عندما جذبت الهواء إلى صدري خرج بلغم كثيز إلى فمي وتجمع على لساني. ترذدت قليلاً ثم أملت رأسي جانباً وبصقت. بصقت دماً خالطه بلغم وفقايع صغيرة. وتبّع ببقع سوداء صغيرة أيضاً.

سمعت الباب يُفتح فتحجرت في مكاني. لا بد أن معلماً سمعنا وجاء لتفقد الأمر.

لكن ذلك القادم لم يكن إلا كوجيما.

وقفت بالباب ناظرة إلي. ثم كأن شيئاً وكزها ركضت نحوي.

جثث على الأرض ونظرث إلي بعبوس.

قالت «الدم في كل مكان. هل تتألم؟» هزت رأسها ولعقت شفثيها كأنما سئقدم على فعل شيء.

قلت «أجل، لكن الألم خف الآن».

اهتز صوتها كأن ريحاً قويّة عصفت به «لقد تبعثهم إلى هنا ودخلت بعد أن رأيتهم خارجين».

«معذرة، إنني مدعورة . . . أتستطيع النهوض؟» مدت يديها لتمس كتفي. وما فتئت تومن برأسها وتبتلع لعابها حتى أمكنني سماعه.

قلت «أظن ذلك. لم أر دماً غزيراً كهذا البثرة»

جهدت لأبتسم ومزرت ظاهر يدي تحت أنفي لأرى. ما زال هناك دم لزج لكنه بدأ يتخثر في منخري. اشتد الألم وصعق وجهي كتيار كهربائي. جلست كوجيما إلى جانبي على الأرض.

وفي آخر الأمر، استويت جالساً وادخلت أطراف قميصي في بنطالي. عثرت على  
ربطة عنقي ووضعتها في جيب قميصي.

مشيت إلى المغسلة التي كان نينوميا قد أشار إليها. ولما وقفت شعرت بذوار  
لكثني تمكنت من المشي باعتدال. كلما خطوت خطوة وخز الألم وجهي.

كان بالمغسلة الخزفية البيضاء شرخ كبير. وكان إلى جانبها دلو به خرقة جافة  
وممسحة بذراع طويلة، جافة كالخرقة. أدت الصنبور فسال ماء بارد. ملأت كفي  
ورششت وجهي وجهت لغسله. ولما مسّت يداي جلدي اشتدّ الألم. شعرت كأنّ  
وجهي انشقّ شقاً. كانت الخرقة قد غصرت حتى أصبحت متكتلة وثركت على حالها  
ذاك. ملأت الدلو ماء وبه الخرقة وحملته إلى حيث الدم. ثم ذهبت كوجيما إلى  
المغسلة وعثرت على خرقة أخرى لمساعدتي. طفقنا نمسح الدم دون أن نتبادل  
الكلام. أضاف المسح ماء إلى الخليط فخفت كثافة الدم، لكنّ ذلك ضاعف عملنا.  
عصرت كوجيما خرقتها ومسحت الأرض. وحيثما جفّ الدم أزلته بأظفري. وقد  
تلوث ماء الدلو بأوساخ الخرقة والدم الذي صار خفيفاً حتى ما عدنا نرى قعر الدلو.  
«كنت أنظر من النافذة، من هناك».

خرج صوت كوجيما هادئاً. كانت تفرك الأرض وتحقق إليها. مسحّت الأرض  
وأومات براسي.

«ظللت أنظر حتى بدأوا الركل. ثم بدأت أرتجف. لم أستطع تحمّل الأمر».

«أجل». أومات براسي مرّة أخرى وعصرت خرقتي فوق الدلو.

قالت «الفتيات فعّعن ذلك بي أيضاً. في الحمام. أوقعنني على الأرض». ثم هدأ  
صوتها «لم أنزف، لكثني تألمت كثيراً. إنهم شديداً الاحتراز وحريصون على ألا يراهم  
أحد، ويجيدون إخفاء آثارهم إلى حدّ مخيف. برأيك أين تعلّموا ذلك؟

قلت دون أن أنظر إلى كوجيما «هناك كتب، أو ما شابه ذلك، تُفصّل الأمر وكيفية  
الإفلات من العقاب».

«أتظن أنهم قرأوا ما فيها ثم جربوه علينا؟ كادت كوجيما تقول ذلك همساً.

لم أجبها.

سألني «هل تظن أننا تمرينٌ يتمرنون عليه أم أننا حقيقة؟»

فكرت في أننا قد نكون الاثنين معاً. غمستُ خرقتي في ماء نظيف وعصرتها ثم مسحت ما بقي من آثار. بعدما فرغنا وقفنا ونظرت إلى الأرض. اختفى الدم دون أثر.

سألني ناظرةً إليّ «ما أنت فاعلٌ بثيابك؟»

بدت كوجيما خائفة القوى. لم أعرف كم من الوقت مضى ونحن نمسح الأرض، وكم من الوقت قضيتُ في القاعة الرياضية. رفعتُ بصري إلى النوافذ المحيطة بالقاعة الواسعة، قرب المنصة، لأتفقد لون السماء، لكنها كانت بلا لون ولم تنبئني بشيء. بدا كأن شيئاً لم يتغير منذ دخولنا إلى هنا، وفي الوقت نفسه، لاح اليوم كأنه موشك على الانتهاء. شكرت كوجيما على مساعدتها لي دون أن أنظر إلى وجهها، فنظرت إليّ. وشعرت بتحديقها إلى أنفي وفمي. لم أستطع تخيل ما رأت.

قالت «لست بحاجة إلى شكري». وسألني مرةً أخرى «لكن ما أنت فاعلٌ بثيابك؟»

قلت «سأتدبر أمري. ستكون على ما يرام».

خرجنا من مخرج الطوارئ وأغلقتنا الباب. تيقنًا من خلوّ المكان فهرولنا إلى الناحية الخلفية لأقرب مبنى. كانت المساحة الضيقة، بين مبنى المدرسة والجدار الحجري الذي يحيط بالأرض، محجوبةً في الظل ومكتظةٌ بأعشابٍ طحلبية، وقد تناثرت على حافاتها علب فارغة وقفافيز عمّال. تبعنا المبنى حتى رأينا الجدار الذي تحدث عنه نينوميا. كان مرتفعاً لكنه أقصر من باقي الجدران.

سألني كوجيما وهي ورائي بخطواتٍ قليلة «لِمَ نسلك هذا الطريق؟»

وقفنا أنظر إلى الجدار، ثم قلت «يجب أن أسلك هذا الطريق، فثيابي ملطخةٌ بالدماء وأخشى أن يراني أحدٌ إذا خرجت من البوابة».

كان هذا العذر أو هن ذراعي وساقني، فسألت نفسي لمن هذا العذر ولأي غرض؟

سألتنني «ماذا يوجد في الجهة الأخرى للجدار»؟

قلت «لست أدري، فلم أفعل هذا من قبل، ولكن لأن البوابة هناك، فتلك الجهة تفضي إذاً إلى ما وراء المدرسة». لم أفقه ما كنت أقول إلا أن شفتي تحزكتا على أية حال. «هل تعتقدين أنه أجدر بي أن أسلك هذا الطريق»؟

«كلاً، أجدر بك أن تخرج من الأمام كجاري العادة. لا مشكلة في أن يراك أحد. حسبك أن تقول إنك تأخرت لعمل ما في المدرسة».

وقفت وكوجيما هناك دقيقة لا نقول شيئاً.

حز في نفسي أن تراني كوجيما مثيراً للشفقة هكذا. وددت لو أنني اختفي. وقفت هناك منتظراً ذهابها. لكنها لم تتزحزح، بل وقفت هناك محدقة إلى ظهري.

وفي آخر الأمر، قالت «سأذهب بعد أن تعبر أنت».

أردت أن أقول لها إنني أحبذ أن تذهب الآن، لكن الكلام استغلق علي. وقفت صامتة مولياً إياها ظهري.

سألتنني بصوت قلق «هل تتألم»؟

لم أقل شيئاً.

قالت «أعتقد أن عليك الذهاب إلى المستشفى. إنني أقول قولاً جذاً».

«حسناً، سأذهب».

«حسناً تفعل».

قلت «إلى لقاء».

رفعت يدي لأتشبث بأعلى الحائط الحجري، ولم يكن شديد الارتفاع. شعرت بوهن جسدي وثقله كرصاص أذيب واستحال طيناً. لم أشعر بعضلاتي أقل شعور، وما إن

وضعت قدمي على الجزء المنخفض من الجدار حتى غادرني كل يقين بما سأفعل بعد ذلك. وحدث الاختفاء فحسب.

أصابني على الجدار كانت تصرخ. عرفت ما يلزم من خطوات للصعود والقفز، إلا أن الحركة التالية استعصت عليّ. تعثرت ووقعت على الأرض. وقفت كوجيما وراني حاملة حقيبتني. أوجعني وجهي. وجفث وأمسكت بحافة الجدار مراراً، بيدي وقدمي دون جدوى، مخففاً في كل مرة. شعرت بحرارة تصعد من معدتي. بلغت وجهي لكثها لم تجد موضعاً تنصرف من خلاله. ولما زفرث ضغطت ثثف من دم متخثر على جيوبني الأنفية فانقض الألم انقضاضاً شديداً. لم أقدر على الالتفات ورؤية وجه كوجيما. أردت أن أختفي عن الأنظار. حك حذائي وجه الحائط فخرج صوت جاف وانتثر غبار رمادي. كلما حاولت التسلق زلقت قدمي وسقطت على الأرض المعشوشبة.

كنت أرفع يدي لأتشبث بأعلى الجدار لفا نادتنني كوجيما وقالت «مهلاً».

«مهلاً». قالت مرة أخرى، لكثها هذه المرة جذبت ذراعي وسحبت جسدي نحوها. عبت في وجهي وهي تنظر إليّ.

«هلاً تحدثنا قليلاً؟»

كان صوتها أخفض من المعتاد. نكست رأسي ناظراً إلى حذائها ولم أقل شيئاً. مشيت أربطة حذائها القذر الأرض. وكانت قد انحلت .

«لما رأيتهم غصبة عليك شعرت كأني أبصرث شيئاً آخر، شيئاً لم تبصره أنت».

أبطأت في كلامها.

قالت «أحسب أنك على صواب. أعني أننا وهم في العمر نفسه. جسدانا كأجسادهم، ولو أردنا لاستطعنا الدفاع عن أنفسنا، ولأذقناهم من الكأس المرة التي تجزعناها. لاستطعنا خوض عراك. لاستطعنا الثأر لأنفسنا. إلا أننا لا نفعل. ما الذي يمنعنا من ذلك؟»

«إني لضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسي». أجبتها، لكنها لم توافقني.

قالت «ليس لهذا السبب سمحنا لهم بفعل ما يفعلون. لا لضعف فينا، فنحن لسنا خاضعين لأوامرهم بأي حال. لعل الأمر قد بدأ على هذا النحو، لسث أدري. غير أننا لسنا مطيعين فحسب، بل نحن من يسمح بحدوث ذلك. نعلم تماماً ما يحدث. نرى كل شيء ونسمح بحدوثه. لا أحسب أن ذلك ضعفاً البتة. بل الأصح أنه قوة».

كزرت قولها لكنني إنما كنت أسألها «نسمح بحدوثه»؟

«أجل. كأننا نسمح لهم بفعل ما يفعلون ولا نفعل نحن شيئاً، لكن ذلك ليس صحيحاً. إن لما نفعله نحن معنى».

وقفت هناك في مكاني مفكراً في قولها.

قالت «لعلك مُحقٌّ في ما تفعل. لعلنا ضعيفين بوجه من الوجوه. إلا أن ذلك ليس بالسيء. إذا كنا ضعيفين فلضعفنا معنى حقيقي، ونحن نعي ضعفنا هذا. نعرف ما الصواب وما الخطأ. وهذا ليس صحيحاً في عين الآخرين بالصف، فهم يدعون جهلهم بما يحدث. يحسنون معاملة من يدوسنا لينصرهم، ولئلا يحل بهم ما حل بنا. يتصرفون كأن أيديهم نظيفة، لكنها ليست كذلك. إنهم لا يفقهون الأمر أبداً، ولا يختلفون عمن يؤذوننا. الوحيدان اللذان لا يشاركانهم ذلك هما أنا وأنت. وهذا هو ما فعلوه بك في القاعة الرياضية... بل ما يفعلونه على الدوام، فلطالما كان هذا ديدنهم. مهما فعلوا فأنت من يسمح بذلك. لكنني لما رأيت ما وقع لك بدا لي أنني رأيت عقدة مجنونة تنفك فكاً، وفجأة أصبح لكل شيء معنى. أتدرك قصدي؟ أعتقد أن مسلكك كان صائباً، بل إنه المسلك الصائب الوحيد».

«لكن أي مسلكٍ سلكت؟»

تكلمت كأن كل كلمة قلتها كانت بطاقة ألصقتها في الفراغ أمام عيني.

بكت كوجيما، وقالت «ما قلت إلا إنك مُحقٌّ. أقول إنك مُحقٌّ».

قلت ناظراً إليها «لا تبكي». وخلال أصابعها التي غظت وجهها، رأيت فمها مُطبّقاً

نصف إطباق أبان عن أسنانها قليلاً. وتحت كفيها تضرجت وجنتاها. عادتني ذكرى ذلك اليوم الصيفي الأول على المقعد أمام المتحف، حيث رأيت كوجيما تبكي أول مرة. يومها بكت دون حراك وبلا صوت. وقد أردت أن أقول شيئاً أو أنني أدركت أنه علي قول شيء، لكنني لما رأيتها تبكي على تلك الحال، أخفقت مثلما أخفقت الآن في قول شيء ذي بال.

قلت برفق «لا تبكي يا كوجيما».

قالت «لا أبكي».

رفعت نظرها وفركت عينيها بظاهر كفها.

«أعني أنني أبكي. إنما ليس لأنني حزينة».

حشرجت ونظرت إلى عيني. وعندئذ تبسّمت.

قالت «هذا برهان. برهان على أنني مُحققة. أترى؟ لست حزينة».

أومأت برأسي. تنفّست كوجيما بعمق، نظرت إليّ وزفرث زفيراً ثقيلاً.

«هل تصدّقني؟ هل تصدّق قولي إنك على حق؟ ذاك ما أشعر به في أعماق قلبي.

أتصدّقني؟»

«أصدّقك».

«... الصبّية خائفون من عيّنك».

حدّثني كوجيما بصوت خفيض لكنه قوي، يخضني بمضمونه.

«عندما يقولون إنهم رابحون فهم كاذبون. إنهم مذعورون فحسب. مرعوبون. لا

أقصد أنهم خائفون من منظر عيّنك. إنهم خائفون من الاعتراف بأنّ ثقة شيئاً لا

يفهمونه. لا يستطيعون فعل شيء فزادى، بل يجتمعون غُضبةً واحدة، لكنهم ليسوا

أصدقاء بحق، وعندما يتميز شيء في العالم يخافونه فيسعون إلى تدميره. يسعون

إلى الخلاص منه. والحق إنهم يخافون مثل الجميع، لكنهم لا يخدعون إلا أنفسهم.

يظنون أنهم يبحثون عن السلام، إلا أنهم كلما أمعنوا في الاختباء زاد تبلدهم. بيد أن شعور الدعر ذاك مقيم فيهم، ملازم لهم كل يوم. ومهما أمعنوا في تعذيبنا لا نقول نحن شيئاً. وخصوصاً لمعلمينا وأبائنا. ومهما فعلوا بنا نستمر في الذهاب إلى المدرسة كل يوم، وهذا ما يزيد خوفهم. إذا صرخنا أو ألقينا بأنفسنا عند أقدامهم وتوصلنا إليهم فسنتمكن من إيقافهم. لكننا لا نلعب وفق قواعدهم. بل إنها إرادتنا. نحن نسمح لهم بفعل ما يفعلون. نكاد نكون نحن من يختار لهم أفعالهم. وذلك هو سبب عدم قدرتهم على تركنا وشأننا. إنهم خائفون جداً، مذعورون جداً، ولا يمكنهم فعل شيء لمنع ذعرهم».

لما فرغت كوجيما من الكلام مزرت طرف إصبعها على شفيتها. ثم، كأنها تستشعر محيط عينها اليمنى، ضغطتها برفق. في الضوء المتبدل، استطعت أن أرى آثار دموعها. نظرت إلي وتبسمت.

«سيفهمون في آخر الأمر».

وبينما وقفت هناك وقدماي مغروزتان في العتمة، شعرت كأني أرى الهواء يبرد صاعداً من الأرض أمام عيني. ثم ما لبثت حتى أدركت أن زقعاً من السماء حجبتهما سحب سوداء، ومن البعيد سمعت هزيم الرعد. لم أعرف كم كانت الساعة. أوجعني التنفس من أنفي لأنه كان يكسر الدم المتخثر، على أنني استطعت مع ذلك شم مختلف الروائح المختلطة عند كل نفس. لم أستطع تبين الروائح كلها لكنني شعرت كأني أعرفها حق المعرفة.

قالت كوجيما «أحب عيئك حقاً. قلت ذلك من قبل، لكنهما علامة. لهما شأن. عيناك هما أنت».

نظرت إلي بعينين كادتا تبكيان، لكنها تبسمت .

«أحبتهما حقاً».

تلك الليلة، تعذر علي النوم.

ثقل جسدي واخشوشن. وطفى علي شعور بالرغبة في التقيؤ، وحتى إغماض

عينني لم يزدني إلا توتراً، وقد راوحت الظلمة في أثناء الإغماض بين الشدة والخفة، لكن النوم لم يأت قط. أوجعني حلقي كأن ثفة من يأخذ بخناق، وسخن فراشي سخونة خانقة. حتى التنفس أوجعني. وكل مساعي إلى النوم صرقت علي النوم.

قلت لماما إن دزاجة صدمتني لأنني لم أتنبه. نهت أمي لرؤية بقع الدم على قميصي. ولما قلت لها إن أنفي ينزف فحسب ارتابت في أمري، إلا أنها حذت تصديقي. وبعد أن فحصت الجروح والكدمات، قالت إن رأسي كان سيصاب وإنه أحرى بي أن أذهب إلى المستشفى. قلت سأفعل. التكلّم يؤلم أنفي كل مرة. ولو كان مكسوراً لاشتدّ الألم. وقد وجدّ الألم بعد وقوع الحادثة أشدّ منه عند وقوعها. قلت إنني سأحاول النوم فصعدت إلى غرفتي. لم أرغب في الحديث إليها ولا إلى أي أحد.

غيرت قميصي المبقع بالدم ورحت لأضعه في سلة الثياب الفعّدة للغسل، لكن ماما طلبت مني أن ألقيه إليها فناولتها إياه بلا اعتراض. عبست وكوّرت القميص وسألتنني عما حدث للرجل الآخر. قلت إنه ولّى مبتعداً بدزاجته. سألتني عن أوصافه. قلت لها إنه كان رجلاً كالآخرين. وما فتئت أصطدم بالناس منذ طفولتي. وفي الحقيقة، صدمتني دزاجات في الماضي ووقعت على وجهي. كل ذلك بسبب إخفاقي في إدراك المسافة بيني وبين الآخر.

زفرت قائلة «كانت دزاجة في الأقل. ماذا لو كانت سيارة؟»

قلت إنني كنت سأنزف أكثر، وربما كنت ساموت.

في صباح اليوم التالي، أشارت عليّ ماما بالذهاب إلى المستشفى قبل المدرسة، لكنني أقنعتها أن تأذن لي بإرجاء ذلك إلى أن أكون في طريق العودة إلى البيت، وأن أقصد المدرسة في الوقت المعتاد. لمّا هممت بالنهوض من الفراش شعرت بألم في حلقي وصدري فجلست ساكناً مدة من الوقت.

فكرت كم سيكون لطيفاً لو أتي قدرت على إخبار ماما بكل شيء، أو قد يكون من الأفضل ألا أقول شيئاً وأن أقيم في هذه الغرفة إلى الأبد. لكنني لن أستطيع فعل ذلك، فكوجيما بحاجة إلي وأنا بحاجة إليها. لم نكن نتبادل الأحاديث في المدرسة،

لكلي أتذكر مزاب أكثر من أن تخضر ألي ارتحت لرؤيتها ولمعرفة أنها موجودة فحسب. وإذا كان وجودي هناك يساعد كوجيما أيضاً على النحو نفسه، فليس لي أن أتركها وحدها في الصف.

في طريقي إلى المدرسة، جهدت لأتذكر بدقة ووضوح ما قالته لي كوجيما في اليوم الفائت.

بكت وضحكت، وقالت لي إنها تحب عيني. ولم تكن تلك أول مرة تقول فيها إنها تحب عيني، غير أن لقولها هذا أثراً لطيفاً أنعشني. لقد عميت عن رؤية ما تفعله هذه الكلمات، لكنها أعادتني إلى حيث كنت قبل أن أهان وأذل.

قالت كوجيما إن الجميع كان خائفاً من عيني. قالت إنهم إذا نظروا إلي ولم يعرفوا في أي اتجاه أنظر، فإن أدمغتهم تتلقى إشارة بأن ثقة أموراً لا يفقهونها، ولكي يصرفوا عنهم شعور الخوف لا بد لهم من التنثر علينا. قالت إن عيني هما أنا، وإننا، أنا وهي، لم نستسلم بل اخترنا للأمور أن تسير على هذا النحو وسمحنا بحدوثها. وقالت إننا لن نبُلغ عنهم أبداً مهما ساء الوضع، وسنذهب إلى المدرسة دائماً، وكلما تكرر الأمر احتملناه، فذلك هو الأهم، وذلك هو ما يحمل معنى حقيقياً.

أعلم أن علي أن أجد سبيلاً، بكلماتي، لأفكر في كوجيما وفي نفسي، وفي ما حدث بالأمس وكل ما حدث من قبل وما سيحدث من بعد، لكنني علي أولاً تحديد لب المشكلة. هل هذا تنثر؟ حتى الآن كل شيء كان تنثراً. لكن ذلك لم يساعدني. هل السبب عيني الحولاء؟ وفي حالة كوجيما، هل كانت علاماتها السبب؟ شعرت كأنني سقطت، وعيناي مغمضتان، في وحل لم يكن ساخناً ولا بارداً. في مكان لا يمكن بلوغه بالعزاء الذي كنت أمتضه، كما تمتض الأجسام الضوء، كلما قرأت رسائل كوجيما أو قابلتها أو حتى فكرت فيها.

بفكر حائر استأنفت سيري على الطريق المحفوف بالأشجار. وفي منتصف الطريق، وقفت قليلاً وزفرت زفيراً حتى شعرت بالألم يستفيق في رئتي. ثم رفعت بصري إلى السماء. كانت زرقاء زرقاء مائيّة رقيقة ولا شيء آخر. اهتزت أوراق الأشجار الكثيرة في حركة واحدة كفلاء ثقيلة. تلبسني يقين تام بأنها ستسقط من أغصانها في أي

لحظة لتغمرنني، دون اعتذار، قبل أن تتاح لي الفرصة للزفير كل ما بقي من الصيف  
اختفى، وكنت واقفاً في الخريف الكثيف، وقد أثقل الضوء والتراب والروائح بهرده،  
كان مطراً صامتاً قد هطل في غفلة من الجميع وبزد كل شيء.

دعاني معلمي إلى طاولته بعد انتهاء الدرس. بدا مذعوراً.

«ما الذي حلّ بوجهك؟»

قلت «صدمتني درّاجة».

كان يرتدي، لليوم، قميص بولو أبيض، وكان يحكّ طرف منخره بالحافة الصلبة  
لورقة مطوية. وببلاهة حدّق إليّ.

«متى؟ البارحة؟»

«أجل».

«في طريق العودة إلى المدرسة؟»

أومأت برأسي. ثم سألتني أين ومتى وقع ذلك، وكيف صدمتني الدّراجة، وماذا  
فعل الرجل بعد ذلك، فرويت له القصة نفسها التي رويتها لماما.

«أعلم أنه لا يمكنك التحكم في حادث، لكن يمكنك الحذر. يبدو الأمر سيئاً جداً.

هل قصدت الطبيب؟»

«ليس بعد».

«عساك تفعل. وجهك منتفخ. اذهب وانظر ما الذي سيقوله لك الممرّض».

هزّ يده لتنزلق ساعته عائدةً إلى معصمه ورفع صوته قائلاً للتلاميذ إنه نسي  
إخبارهم بأن اليوم عندنا درس صحّة بدل درس الرياضة، ولذا سنعود بعد الغداء.  
جاء رفاق نينوميا إلى طاولتي وسألوني عما كنت أقول للمعلم. ضحكوا محاولين  
إخافتني. قلت لهم ما قلته للمعلم، وقلت إن ذلك كان كل ما في الأمر. شعرت بقلق  
كوجيما، من اختلاسها النظر إليّ، لكنني حرصت على ألا يلاحظوا نظري إليها.

لم أز وجهي بعد تلك الواقعة. والحق أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ أن نظرت إلى المرأة آخر مرة. في المدرسة، غريزياً تجلبث مرايا الحقام، وفي البيت بذلت جهدي لكي لا أنظر إليها. ولم يكن ذلك بالأمر العسير، إذ ما لبثت أن ألثت العيش بلا مرايا.

بعد المدرسة، مررت بالبيت قبل التوجه إلى مستشفى البلدة.

دخلت المستشفى وشهدت أخلاطاً من الروائح والبشر. عند الهاتف العمومي، وقف رجلٌ غصب رأسه بضمادة بيضاء. وكان معظم الجالسين على المقاعد أمام التلفاز الضخم عجائز. وقد اضطرّ الممرضون إلى رفع أصواتهم والتحدث في أذان العجائز لإخبارهم بوقت تناول الدواء وكيفية تناوله. كأن الكلمات كانت تطفو إلى جانبهم ويُشيرون إليها وهم يقرؤون للعجائز وصف الدواء.

قصت منضدة المحاسبة لأريهم بطاقة التأمين الطبي ثم جلست حيث جلس العجائز يشاهدون نشرة الأنباء وهم شبه نيام. إلى جوارتي جلست عجوزٌ طوت يديها على مقبض عصاها، ولم أستطع تبثن ما إذا كانت عيناها مفتوحتين أم مغمضتين.

نادوا باسمي وأعطوني شارةً بلاستيكيةً وأرشدوني من الردهة إلى منطقة الانتظار في عيادة جراحة العظام. بدا مسلك الممرضة التي استقبلتني شبيهاً بمسلك عاملٍ في خطّ تجميع. كلّمتني وعينها على أطراف أصابعي.

الجناح الذي دخلته امتلأ بالمرضى أكثر من الأجنحة الأخرى، ولم يبذ على أيٍّ منهم إصابةً من أي نوع. أجبته عن أسئلة ورقة البيانات، ووفّعتها وأعدتها. ثم وقفت هناك منتظراً دوري.

عندما نوديت إلى غرفة الفحص ورأني الطبيب جحظت عيناه.

«لا بد أن ذلك الملك!»

كان الطبيب بعمر أبي، ربّما أكبر بقليل، بوجه طويل وبنية قويّة. بين الجدران عديمة اللون والمعدّات الطبيّة البالية، شغّ بياض معطفه فبدا بلون النعناع، وامتلاً جيبه على الصدر بأقلام الحبر وأقلام الرصاص التي تنتهي أطرافها بممحاة.

سحب كرسيًا وسألني «هل نزلت»؟

قلت «نعم».

«ما الكفية»؟

«كثيراً».

«مؤكد، أتوقع ذلك». أوما الطبيب برأسه وقرأ ورقة البيانات. تيقن من أنني لم أشعر بصداع أو غثيان بعد الواقعة، وسألني أي جزء من الدراجة ضرب رأسي. وأجبت بأنني لا أظن أن الدراجة قد ضربت رأسي، بل ارتطمت بالأرض. همهم متفكراً ثم دنا أكثر. ضغط جبھتي بأصابعه، ثم وجهني إلى رفع ذقني مصوباً مصباحاً صغيراً فضياً إلى أنفي، ورفع منخريّ بطرف إصبعه حتى يرى داخلهما. شممت رائحة أنفاسه التي بدت زنخة. بعد ذلك، ضغط أنفي بإصبعه بحذرٍ سائلاً أن أخبره كلما شعرت بألم. قلت إن كل شيء يؤلمني وشعرت بعينيّ تنتفخان بالدمع إلى أن سألت دمعاً من زاوية عيني. استدار الطبيب بكرسيه إلى طاولته فصرّ الكرسي، ثم كتب تعليقاً في سجلي. قال إنني بحاجة إلى أشعة وإن عليّ انتظار الممرضة في الردهة.

بعد الأشعة بقليل، نوديث مرةً أخرى إلى غرفة الفحص. أشار الطبيب إلى الصور وقال إن عظامي لا يظهر عليها ما هو خلاف الطبيعى.

«مع أن شيئاً لم يكسر فإصابتك شديدة. قد تتألم مدة». وضع قبضته على فمه وكخ. «لكن الوقت يُبرئ الجراح كما يقول المثل».

سألته بحذر «لكنني لست مضطراً إلى الاستمرار في المجيء، أليس كذلك»؟

قال ضاحكاً «تعال في أي وقت. لا يمكننا فعل شيء إلا الانتظار لنرى. سنصف لك حبوباً مسكّنة للألم وضمادة. لك أن تتناول الحبوب كلما شعرت بالألم، ولا تستعمل الضمادة إلا عندما تخلد إلى النوم. يمكنك استعمالها في أثناء اليوم أيضاً إذا كانت لا تزعجك، لكن استعمالها في الليل فقط سيُفي بالغرض».

نقر طاولته بطرف قلمه.

«الضمادة كبيرة الحجم، وعليك أن تقضها. ولا تتناول الحبوب أكثر من مئتين في اليوم».

شكرت الطبيب ووقفت للذهاب.

قال «ثقة شيء آخر. حتى إذا خُف الانتفاخ، أريدك ألا تحضر حصة الرياضة. لا تبذل جهداً جسدياً. ينبغي أن ينال جسدك عافيته. أنا على يقين من أن معلّمك سيتفهم ما إن يرى وجهك». تبسّم لكنه لم يضحك هذه المرة. كدت أرى أسنانه كلها. كانت مستقيمة وكبيرة، تكاد تضاهي حجم ظفر إبهامه.

«أتعرف ماذا؟ خيّر لك أن تعود بعد أسبوع. فقط لأرى كيف تسير الأمور».

ضرب الطبيب ركبتيه، وقال لي أن أستريح. كأن ذلك كان إشارة، إذ سحبت الممرضة الستارة مبتسمة وأرشدتني إلى الردهة حيث نادت المريض التالي. كان صوتها أخص على نحو غريب.

## الفصل السادس

أقبل الخريف مسرعاً، وكانت سرعة قدومه تزداد كل يوم. ذات صباح، بعد سيري المعتاد في الشارع المحفوف بالأشجار، دخلت ساحة المدرسة ووجدت جنساً من الأزهار، لا أعرف اسمه، متفتحاً في حوض وراء البوابة. أزهار وردية وبيضاء مستديرة ذات بتائل كبيرة، بزغت من سطح طحالب جافة مثلما تخطر بالبال أفكار جُلُوء من الهم.

يُحتمل أن تكون من جنس الأزهار التي لا تنمو إلا في الخريف. ومع افتتاحي ذاك، أدركت أن هذه الأزهار أعجوبة أخرى من أعاجيب دنيا تآبى أن تقبل بي. أمّا الشعور الوحيد الذي خضني وحدي فقد كان ذلك الألم اللأبد في أنفي. كان الألم آخذاً في الاضمحلال، ويسهل تدبره شيئاً فشيئاً، لكنني شعرت بأن نفسي لن تطيب ولن تقوى أبداً، مهما طال انتظاري لأي تغيير.

ربّما كان الوقت في منتصف تشرين الأول لقا كتبت كوجيما إليّ مكتوباً تقول فيه إنها ترغب في لقائي. كان مكتوباً قصيراً. ذكرت فيه فقط أن ألقاها في اليوم التالي، بعد المدرسة، في مكاننا المعتاد.

وجدت الوريقة ملصقة داخل طاولتي كالورينقات الأخرى. ذهبت إلى الحمام لقراءتها. شيء ما تغير في خط يدها مذ رأيته أوّل مرّة. كان هو خط يدها نفسه، إلا أن الحروف الهشة الرقيقة المكتوبة بقلم كبّاس صارت أكبر حجماً وأكثر كثافة. كأنها حُفرت في الوريقة حفرًا. لكنه كان هو خط يدها. وقد اضطرب عقلي لرؤيته.

لم يرحني ذلك، لكنني كتبت «إنني مشغول في الغد»

في اليوم التالي، كتبت تقول إنها تستطيع لقائي في أي يوم وفي أي وقت. وفي اليوم الذي تلاه، وجدت وريقة أخرى داخل طاولتي تقول إن لديها ما تؤدّ قوله لي. لم أرّد على رسائلها.

لم أستطع حمل نفسي على لقائها.

لم يطب لي النوم.

كل صباح عندما أستيقظ، كانت تؤلمني المواضع نفسها من حلقي وصدري وكانت الآلام على الشاكلة نفسها، وكلما شربت ماء اشتد الألم. بعقلي فارغ وجسد منهك، تدبّرت أمري بجزء نفسي إلى المدرسة جزأً، وكثيراً ما نعست وغفوت في الصف، وزعق بي المعلمون. وقد انتشى نينوميا ورفاقه بذلك. سخن جسدي طوال اليوم لقلة النوم، وطالما غرقت بلا سبب، وترطب جلدي.

حتى في البيت ألفت مشقة في إلقاء السلام إلى ماما ووداعها. وفي غرفتي لم أمش كتاباً، دع عنك قراءته. مكثت ألياماً بطولها على السرير والستائر مسدلة، مستلقياً فحسب. شهوتي للطعام قلت، كأثماً فسدت، وشعرت بأن نصف رأسي مملوء بقمامة. وكلما هممت بالاستحمام لم أكن أرى من داع لفرك جسدي أولاً فكنت أجلس بأوساخي في الحوض.

ذات صباح قبل ذهابي إلى المدرسة، سألتني ماما «متى ستعود إلى استشارة الطبيب؟ إنه مختص. إذا لم تعمل بنصيحته سيتعفن أنفك».

قلت إنني بخير وأتجهت إلى الباب. أدركت أنه مضى وقت طويل منذ زيارتي الوحيدة للمستشفى.

سألتني ماما عند الباب «أتعلم ما الذي يحل بأنف متعفن»؟

قلت «يسقط».

قالت محذرة «أوه، لو أن الأمر لا يعدو ذلك! لا لن يسقط. سيتمزق. أتعرف الفرق؟ عندما يتمزق .».

أخذتها الحماسة لمتابعة كلامها، لكثني قلت لها إنني أعرف ما الذي يحدث وخرجت.

في نهاية كانون الأول، أصبح عدم النوم عادة لي. كنت لا أكاد أنام ساعة حتى أستيقظ ثم أعجز عن العودة إلى النوم. وأجلس باقي الليل شاخساً ببصري من

النافذة، حيث الظلام دامس في الخارج والرؤية متعذرة، وفي آخر الأمر استلقي وأغمض عيني مدة ثم أعود إلى الجلوس.

تشير الرزنامة على طاولتي إلى كانون الأول 1991. لم يمض إلا شهر. في الضوء الواهن قبل الفجر استلقيت على ظهري وحاولت مراجعة وقائع الشهر الفائت في ذهني، لكنني لم أقبض على شيء ذي بال. وجدثني أفكر في الانتحار.

في أول الأمر، كان الانتحار كلمة لا غير، فكرة غامضة مُنبثّة عن الواقع، تُشير إلى سبيل يختاره أناس آخرون للموت، أناس لا أعرفهم. لكن ما إن أصبحت الكلمة تخصني حتى اتخذت أغرب شكل، وشعرت بها تنمو بداخلي. لم يكن الانتحار شيئاً يحدث للغرباء فحسب. بل يمكنني تحقيقه إن شئت. تحوّلت أفكاري إلى تدبير.

مزرت أصابعي على معصمي حيث سآجرحه بسكين، غير أن الإحساس -باليد اليمنى تجرح، وباليمنى تجرح -بدا بعيداً ولا يخضني. إذا جرحت جلدي فسأنزف أكثر ممّا نزفت في القاعة الرياضية. لم أمث في ذلك اليوم، لكنني إذا جرحت معصمي فإني لا أفعل ذلك إلاّ للموت.

فكرت في الدواء لقتل نفسي. سأملاً حلقي بحبوب بيضاء. ستتكوّم أسفل معدتي. تخيلت اختلاط الحبوب بالأحماض في معدتي، وكيف سيؤثر الدواء في جسدي، كيف سيقتلني. قد يزقّدي الدواء فلا ألاحظ أبداً ما يحدث. بدا ذلك الوسيلة المثلى لإنهاء حياتي، لكنها ما زالت بعيدة المرام، إذ لست أعرف أي دواء ينبغي أن أتناول وأين أجده وكم حبة أتناول. وكلّ ما استطعت التفكير فيه هو الكيفية التي بها تغادر الحرارة جسدي بعد أن تقتلني الحبوب. سأصبح جسداً بارداً.

ما الموت على أية حال؟ تركت هذا السؤال المستحيل ليملاً غرفتي المظلمة. فكرت بأن هنالك دائماً، في كلّ مكان، وفي كلّ لحظة، شخصاً ما يموت. هذه ليست خرافة أو مزحة أو رأياً محضاً. الناس يموتون باستمرار. إنها حقيقة مطلقة. كيفما

عشنا حياتنا فنحن ميّتون عاجلاً أو آجلاً. وفي كلتا الحالتين، ليس العيش إلا انتظار الموت. وإذا كان ذلك صحيحاً فما جدوى العيش؟ لم أنا حي؟ صرث كالمجنون، وطال أرقى ولم يغمض لي جفن، وتصفدت أنفاسي. ثم باغتتني الفكرة إلما الموت نوم، فانت لا تعلم أنك نائم إلا إذا استيقظت في اليوم التالي، وإذا لم يأت الصباح فستنام إلى الأبد. لا بد أن الموت شيء كهذا. عندما يموت الإنسان لا يعلم أنه ميّت، لأنه لا يرى ذلك يحدث أبداً، لا أحد يشهد موته بنفسه. باغتني هذا كله كأن أحدهم لكمني لكاماً.

في بادئ الأمر، كانت رغبتى في الموت هي رغبة في الاختفاء. أردت أن أمحوني وأن أهنا بسلام تام. لكن، إذا كان الموت لا ينطوي في الحقيقة على لحظة أموت فيها موتاً نهائياً، فهل يمكنني الاختفاء فحسب؟ ألا يعني الموت أن يهيم المرء إلى الأبد في شيء كالحلم؟ وإنني لأعجب وأسأل من له أن يميّز العيش في هذا العالم من العيش في حلم؟

رأيتني بثوبى المدرسى في تابوت، منخراي محشوّان بقطن. الناس متزاحمون حولي في المكان نفسه الذي أقيمت فيه الجنازة التي حضرتها. على وجهي ابتسام طفيف. أعلم أنني إذا مت فلن تكون هناك لدي وسيلة لأعرف كيف سيبدو العالم بعد رحيلي، لكنني لم أقدر على مقاومة الرغبة في تخيل ذلك. في ماذا سيفكر التلاميذ في صفّي؟ أحسب أن الأمر سيعتمد على ما سأكتبه في رسالة انتحاري، لكن نينوميا والآخرين قد يقعون في مشاكل. أو ربّما يتسرّ عليهم باقي التلاميذ. أجزم أن بعض الناس سيلقون باللائمة عليّ لقتلي نفسي بسبب تنفّر ثقّه غير مؤد. بل إنني موقن بذلك كلّ اليقين. وقد يقولون إنني قصدت التوجّه باتجاه الانتحار منذ البداية، وإن الموت كان هو ما أردته. أو إنني لم أستطع تدبّر الأمر. لكن قتل نفسي وترك العالم ورائي لن يصلحاً شيئاً. هل ذلك سينقذ كوجيما من التنفّر أم أنّه سيزيد الوضع سوءاً؟ ولما أغمضت عيني ارتفعت هذه الأفكار إلى السطح، وطففت أمامي ثم انفجرت واختفت. مهما حصل فالناس دائماً ينسون. وإذا سمحت لنفسي بإزهاق روعي فلن يغيّر ذلك شيئاً.

بدأت أبكي طوال الليل. لم يكن بكاء بمعنى البكاء، بل كان شعوراً بانهمار الدمع من عيني، مثلما يدرك المرء أنه يتعرق. ولم أستطع إيقاف دموعي. سألت نفسي عقاً إذا كنت حزينا، لكنني لم أعرف ما الحزن. إذا عني البكاء الحزن فقد كنت حزينا حقاً، لكن ألا يمكن أن يعني ذلك العكس أيضاً؟ استمررت دموعي في الانهمار على وجهي. وخفق صدري. مزات لا حصر لها جلست مشلولاً على السرير وراقبت انجلاء الليل.

استمررت كوجيما تكتب إلي رسائل قصيرة، وطويلة في بعض الأحيان.

كانت رسائل لطيفة. شوقتني إلى لقاء كوجيما والحديث إليها في أمور شتى. لكنني لسبب ما لم أستطع لقاءها. ولم أستطع حتى الرد على رسائلها. رحلتنا الصيف الفائت، والأوقات التي أمضيناها على درج النجاة من الحريق، وكل الأشياء الأخرى التي حممتني تداعت الآن واندثرت، وما عادت هنا لتدقني.

الكلمات التي ملأت الصف كانت تتكسر قبل بلوغها سمعي. أمضيث الأيام كلها جالسا. ولم أعد أتذكر كيف أكون قويا. كغريب أخذت أراقب جسدي وهو ينحل شيئا فشيئا. وعلى ضعف جسدي ووهنه، منحتني رسائل كوجيما سحراً غريباً، قوة منعشة ساعدتني على التنفس. وفي تلك اللحظات، لم يكن ثقة شيء آخر سواها.

طراً تغيّر واضح على كوجيما وهي تسمح للآخرين بالتنفّر عليها، فبدأت هامدة كفراش بال، وأصبحت كأنها مُحاطة بدرع قوي كقوة رسائلها. والحق أنها هي من كوّن هذا الدرع بنفسها. لم يتغيّر شيء في التلاميذ، لكنني عرفت أنها هي من تغيّر تغيّراً لم يفهمه أحد، ولا حتى أنا. صحيح أن الفتيات ما فتئن يركلنها ويأمرنها بقضاء حاجاتهن، لكنني كلما رأيت مزيداً من هذا قلّ فهمي لما أرى.

في الأحوال التي التقت فيها عيوننا كانت كوجيما تلتفت وتبتسم لي من زاوية فمها. شعرت بالغباء لعجزي عن الرد على رسائلها، لكنّ تبسّمها أنبأني بالأقلق. كان ذلك أمراً حسناً. وكانت تطيل النظر إليّ حتى أشيح بوجهي.

في يوم الخميس التالي، ذهبت إلى المستشفى.

وصلت بعد الخامسة بقليل، وكالمرّة الماضية، وجدت الاستقبال والردهة مكتظّين.

من الناس، والألوان، وبرامج التلفاز، والأصوات التي سمعتها، والروائح التي شممتها بوجه خاض، كان المكان هو نفسه على نحو لم تشبه شائبة. ولم لا؟ فقد كان المستشفى هو نفسه بعد كل شيء، لكن هذا التشابه لم يفاجئني بإيلام، كما يفعل الحنين، ولم أستغرب أنني قد فعلت هذا كله من قبل، أو خبرته من قبل. عرفت أين كنت، لكنني لم أعرف متى كان ذلك. شيء غريب كان يحدث.

لما تقدمت لاستلام ورقة التسجيل رأيت موموز بين وجوه الجالسين في الردهة. جلس بثوبه المدرسي بين المرضى والمنتظرين لأخذ الدواء، جلس وحيداً على المقعد في الخلف.

ضاق صدري. وفجأة اندفعت وراء كشك هاتف عمومي. امرأة في منتصف العمر كانت تمسك بالسقاعة بين ذقنها وكتفها تحيرت لما رأيته، وسرعان ما أشاحت بوجهها عندما نظرت إلى وجهي. أيقنت أن موموز لم يكن ليراني هنا، لكنني أيقنت أنه كان هو. موموز. وكان التفكير فيه فحسب يسرع نبضي.

خطر ببالي أنني لم أصادف من قبل نينوميا ولا موموز ولا الصبية الآخرين خارج المدرسة.

ما كان يحدث في المدرسة كان يبقى فيها. وأينما ذهبت حملت معي عبء ما يفعله بي نينوميا وموموز وزملاء الصف، لكنهم، في حقيقة الأمر، لم يشغلوا إلا نصف حياتي. لكن حين رأيت موموز خارج أسوار المدرسة شعرت بأنني ضللت طريقي خارج الخارطة. فكّرت أن أنسى أمر الطبيب وأخرج من الباب الدوار، لكنني لم أقدر على الخروج حتى من المساحة التي كانت بين كشك الهاتف الأخضر وأصص النباتات.

غير أنني بعد حين توجهت إلى موموز. وفي كل خطوة خطوتها، كان حذائي الرياضي المظايط، المصنوع من مادة غامضة لا صلابة ولا ليونة، يحتك بأرضية الردهة. وبحذرٍ قطعت أرض الردهة. ثقل رأسي بالفراغ، فلم يكن عندي شيء أقوله لموموز ولا رغبة لرؤية وجهه. لم أعرف ما الذي كنت أفعله.

كان موموز جالساً بتناقل في الطرف البعيد من المقعد، وذراعا معقودتان، وهو يحذق إلى حدائه. وقفت قريباً جداً منه حتى كاد حداءنا يتماشان.

وقفت في مدى بصره وشعرت بنظره يصعد من قدمي إلى ركبتي، ثم من ركبتي إلى فخذتي، ثم إلى ثرقوتي، وزفر حتى وصل نظره أخيراً إلى وجهي. تحولت عيناه عني مثلما تعبر ظلال السحب الشمس في يوم بلا ريح. لم يتحرك، وفي آخر الأمر مال بذقنه.

وقفت هناك دون قول شيء ونظرت إليه من علي.

نظر إلي موموز لحظة أو لحظتين قبل أن يعاود النظر إلى قدميه. بدت عيناه خاويين، كأنما تنظران إلى ملصق إعلان التحصين الذي كان مثبتاً على الحائط. ذكرني وجهه بقفازين بيضاوين جديدين.

لكي لا أركل قدميه قفزت فوق ركبتيه وجلست على المقعد الفارغ إلى جانبه. كان مسند الظهر البلاستيكي بلا لون. وعلى المقعد ثركت صحيفة، من يدري كم مرة قرئت لتنتفخ وتتغصن على هذه الشاكلة.

لم يتحرك موموز ولم ينظر إلي لقا قفزت فوق ركبتيه. ولم يخطر ببالي أنه كان يدعي، بل أظهر لامبالاة خالصة. جلست قربه وعقدت ذراعي أيضاً، ونظرث إلى حدائي. كأن موموز كان يفكر في شيء لا علاقة له بي.

بقيت جالساً هناك حيناً، ولم يناد موظف الاستقبال موموز، ولم يكن عنده سبب لمناداتي.

لم أعرف إذا كان موموز قد انتهى وينتظر أوراقه أو دواءه، أو إذا كان ما يزال ينتظر الطبيب. ولم تكن تبدو عليه إصابة ولا مرض.

لبثنا مدة جالسين هناك فحسب.

تململ الناس من حولنا كأنما يعوضون عن سكوننا. جلست هادئاً قرب موموز وكان الباب الدوار يفتح ويغلق. مشت الممرضات على الأرضية بأحذيتهن الناعمة وألقين

التحفة إلى المرضى بتكلم شديد.

لم أعرف هل جلسنا هناك دقائق أم أكثر من ذلك، لكن بمرور الوقت، غشيني النعاس، فاسترخت أعصابي، وكلما صددته اعتراني الصداع. لم أنم الليلة الفائتة وكان أشد ما يقهرني هو النعاس في أثناء الحصص، ثم مرّة أخرى في مثل هذا الوقت مساءً. غام لون المظاظ الأبيض المحيط بحذائي واستحال رمادياً، وكان علي رفع حاجبي لأبقي عيني مفتوحين.

فجأة قام موموز ومشى. وقف وتبعته. سارع الخطى في الغرفة المكتظة دون أن يلتفت لينظر إليّ. تبعته إلى خارج الباب الدوار وقد جرت الليل فجأة.

لم يكد النهار ينجلي قبل دقائق حتى أقبل الليل بظلامه. سرت في الهواء برودة شديدة، وهبت ريح أرجفت أغصان الأشجار. رأيت موموز بثوبه المدرسي من الخلف وهو يدخل بين أفواج الناس المثجّة إلى الباب، مختفياً بسرعة ضاهت، في الأقل، ضعف سرعة مشيه، كأنّ الليل ابتلعه.

تبعته وأنا أكاد أركض. أرض المستشفى شاسعة، موقف الدراجات واسع، وبدت الدراجات الكثيرة الواقفة هناك كصفائح معدنيّة متتابعة. وفي المشهد الممتد، أقيمت أعمدة إنارة صغيرة زرقاء بينها مسافات متساوية وضعت بها مقاعد. ولما أوشك موموز على بلوغ البوابة لحقت به وألفيتني أمسك بياقته وأشدّها.

تأرجحت ذراعاً موموز في ضوء الإنارة داكن الزرقة، ووقع على الأسفلت مثكناً على يده. نظر إليّ لحظة، ثم أعرض عني، وبصمت وقف ونفض الغبار عن ثيابه. نظر إليّ دون أن يواجهني. لم أشح بوجهي هذه المرّة وبادلته النظر.

«ما الخطب؟» قال موموز واضعاً يديه في جيبتي قميصه. مال عنقه قليلاً. في ظني أنّي لم أسمع صوته بهذا القرب من قبل، فقد كان مختلفاً كلّ الاختلاف عن الصوت الذي أتذكر. ولما لم أجب، كرّر سؤاله «ما الخطب؟»

لم يكن عندي شيء بعينه أقوله، لكنني قلت «ينبغي أن نتكلم».

لم تتبدل تعبيرات وجهه، وقال «نتكلم؟ أعني أنت وأنا؟»

قلت «أجل».

«لا لن نتكلم».

قلت «بل سنتكلم».

«لن نتكلم».

ثم نظر إلى وجهي. بادلته النظر وقد شعرت بغباء ما قلت. وارتعشت ركبتي وأطراف أصابعي.

سألني «وما الذي يجعلك تعتقد أنني سأصغي إليك»؟

قلت «لا شيء».

تكلف الابتسام، وقال «يمكن تأجيل ما تؤدّ قوله مهما كان، فليس بيننا ميعاد».

قلت «كنت أعلم أنك ستكون هنا. رأيتك تدخل». كان ذلك كذباً. «أنا بحاجة إلى الحديث إليك».

توقّف موموز وعاین وجهي. سمعته يتنفس تنفساً سريعاً.

ضحك، وقال «عجيب أمرك كم سيطول كلامك؟ والأهم هل له علاقة بي»؟

«إننا بحاجة إلى الحديث فحسب».

«حسناً فليكن». مشى موموز إلى المقعد تحت الإنارة الأقرب وجلس. لم

أجلس أنا هذه المرة [2]

في آخر الأمر، قلت له «لا أستطيع النوم». لم يكن عندي ما أقوله، دع عنك الحديث في أمور بعينها، لكنّ لساني لفظ بهذه الكلمات كأنّ موموز لم يكن هناك. وكزرت الكلمات في عقلي؛ لا أستطيع النوم. ما قلته كان صحيحاً، لم أكن أنا. «لم أنم منذ نحو شهر».

نظر موموز إلى يديه على حجره وإلى أطراف أصابعه «عجباً! وإذا فأنت تعاني

انعدام القدرة على النوم؟

قلت «نعم».

«مهلاً، ما شأني أنا بذلك؟ وقد بان على وجهه أنه لا شأن له بذلك حقاً.

«بسببكم أنتم».

بدا مرتبكاً بحق، وقال «من تعني بأنتم؟»

قلت «إنك تعلم، أنتم».

أوما موموز برأسه وحك زاوية عينه.

«حسناً، سأدعي أنني أعرف عمن تتكلم. ما الذي فعلناه؟»

كدت أقول تتنفرون علي. لكنني لم أقدر على التلفظ بذلك. بدا من الخطأ قولها على هذا النحو. ابتلعت ريقى واصطككت أسناني وتنفسست بعمق. أردت أن أقول اسمع، أنتم تفسدون حياتي، لكنني شعرت بأن هذا القول لن يعبر عفاً أنا فيه حقّ تعبير، وعفاً كان موموز والآخرين يفعلونه بي. ولما عجزت عن الإتيان بقول مفيد لم أقل شيئاً.

قال موموز بصوت برم «هيا، قل ما عندك».

أخفيت أصابعي المرتعشة في جيب قميصي، وقلت «أنتم تؤذونني. طوال الوقت».

«نؤذيك؟»

«عندما تأمرونني بفعل أشياء وتركلونني وتلكمونني. إنكم تؤذونني بسبب حوّل عيني».

«وتريد أن توقف ذلك؟ أهذا ما تقوله لي؟»

«رئماً».

ضحك موموز، وقال «رئما؟ برئك ماذا تعني برئما؟»

«لماذا . . .» قلت لكنتي عجزت عن إكمال قولي. وأنا جالِس هناك بصمت، زفر موموز وسألني ما الخطب، وقد نفذ صبره.

«لماذا فعلتم ما فعلتم؟ لا يحق لأحد أن يؤدي أحداً آخر. لا يحق له». زنت شكل كل كلمة وثقلها. «لم أفعل شيئاً لاستحق هذا»

عقد موموز ذراعيه ونظر إلى ركبتَي.

قلت «لا يهمني أن أبدو غريباً في عيونكم، فهذا هو أنا. ولا أسألكم أن تعذوني إنساناً سوياً».

وأنا أركب الكلمات تجفّع اللعاب على لثتي، لكنتي شعرت بجفاف فمي، فلعقت شفتَي. كان موموز جالساً على المقعد ينظر إلى أظافر يده.

ابتلعت ريقِي وتابعت الكلام.

«لا يحق لأحد. وأنتم تنظرون إليّ كأثني مسخّ وتعرضون عني. اعتدت ذلك. ولكم أن تظنّوا بي ما شاءت لكم الظنون، لكن ليتكم تتركوني وشأني فحسب . . . ما اخترت أن أولد هكذا، ولا اخترتم أنتم أن تولدوا بعيون سليمة. وبذلك نحن سواء، أنتم وأنا. ليست مشكلتي ظنكم بي أنّي مقرّر. ولا بأس بذلك. ولكن ذلك لا يعني أنّه يحقّ لكم إيذائي ولا إيذاء أي شخص آخر»

ارتعدت يداي داخل جيبِي على نحوٍ ظاهر. ولكي أهدّئهما ضممت أصابعي وأحكمت قبضتي. كانت وراءنا فتيات يقدن درّاجاتهنّ، سمعتهنّ يتحدّثن مبتعدات.

رفع موموز حاجبه، وقال «لا أعرف، لا أفهمك».

سألته «أي جزء لم تفهم؟»

قال «أولاً؛ لماذا قلت إنّنا سواء فقد جانب الصواب. وكما ترى، لست أحول العينين، وأنا لست أنت. أنت الأحول، وأنت لست أنا».

ضحك.

«محال أن نتشابه. ثانياً؛ قلت تَوَا إله لا يحق لأحد أن يؤدي أحداً آخر، وتريدنا أن نتركك وشأنك لأنك لم تفعل شيئاً. لا أفهم ذلك».

سأله «وما العسير في فهم ذلك»؟

«لا أحد يفعل أي شيء لأنه يحق له ذلك. الناس يفعلون ما يفعلون لأنهم يريدون ذلك».

تحنح موموز وفرقع مفاصل سبّابته وهو يتكلم.

«ماذا كان ذلك الشيء الآخر الذي قلته؟ قلت إننا نفعل ذلك بلا سبب، أليس كذلك؟ أوافقك الرأي، لكن ما الضير؟ ما الخطأ في ذلك؟ أعني أنك إذا أردتنا أن نتركك فأنت حُرٌّ في إرادة ذلك، وأنا حُرٌّ في تجاهل ما تريد أنت. هنا لا معنى لما تقول. يُغضبك أن الناس لا يحسنون معاملتك كما ينبغي، أليس كذلك؟ ما يحصل الآن خير مثال. يمكنك أن تأتي إلي وتقول إنك تود الحديث، لكن ذلك لا يعني أنه عليّ الإصغاء إليك. أتعرف ما أقصد»؟

استعدت في ذهني ما قاله موموز تَوَا ونظرْتُ إلى يديه.

قال «وفوق ذلك، تلك القصة التي رويتهَا عن شكلك وعن أنه سبب تصرُّفنا معك على ذلك النحو، أقول لك إن شكلك لا علاقة له بتصرُّفاتنا».

كان كلماته حقنت دمي بالرصاص.

لا علاقة له بتصرُّفاتهم؟ سمعت قلبي يخفق خفقاناً سريعاً، وشعرت بضغط شديد داخل أذني. ولشدة توثيري لعقت شفتي، وشهقت وزفرت. ولما تكلمتُ خرج صوتي مُجهداً.

قلت «ما معنى ذلك»؟

نظر موموز إليّ وضحك كأن الأمر مُسلٍّ.

«معناه أنك أسأت الفهم. أعلم أنك عرضة للتنفّر في المدرسة، وهو ليس بالشيء الذي أتشوّق إليه أو أستطيعه. ما هفني؟ وأعلم أن الجميع يسخر منك، ويركلك، ويلكّمك، وأعلم أن ذلك يحدث كل يوم، لست مخطئاً في هذا الشأن. وعيناك مضطربتان والجميع يناديك بالأحول. ذلك صحيح، لكنّ هذا ليس إلا مصادفة. لا علاقة لعينيك بما يحدث في المدرسة. لست لهذا السبب عرضة للتنفّر».

قلت «لا أعلم ما تعني. أنتم تسخرون من عيني دائماً وتنتعونها بنعوت غبيّة. تنادونني بالأحول وتضربونني. والآن تقول إنّ هذا ليس هو السبب»؟

ضحك موموز، وقال «اسمع، اسمع. لا سبب لكونك أنت من يتعرّض لذلك، فأني شخص آخر كان يمكن أن يكون هو المقصود. لكن اتّفق أن كنت أنت هناك واتّفق أن كنا نحن في مزاج ما، فسارت الأمور على ذلك النحو».

بدلت مجهوداً كبيراً لأكرّر قولي «لا أعرف ما تقصد»

سأل موموز «أي جزء لم تفهم؟ لا أحد يتعمّد إزعاجك، دون غيرك، بسبب عينيّك. ذلك كلّ ما أقوله». وزفر بغضب.

«وإذاً فلماذا أنا من بين الجميع في الصفّ»؟

لم أكن على يقين من كلامي الآتي لكنني قلته.

«إنكم كثيراً ما تضايقون كوجيما أيضاً. تنتعونها بالقدرة وتضربونها بسبب مظهرها. إذا كان ذلك يحدث مصادفة، فلماذا يحدث لنا نحن الاثنين دائماً؟ ولماذا تُعاقب»؟ ارتعش صوتي أكثر من ارتعاش يديّ.

نظر موموز إليّ باستياء، وقال «كوجيما؟ أوه، تلك البنت»

عصفاً ربح هزّت الأشجار.

قال موموز «فكّر في الأمر. ليس هناك إلا المصادفة. هكذا هي الحياة. كلامي هذا لا يقتصر على تعرّضك للتنفّر. هل من أسباب لكلّ ما يحدث في هذه الدنيا؟ إنني موقن بأنّ الجواب هو لا. وحقاً، ما إن يقع حدث ما حتى يفسّره المرء تفاسير شتى

تبدو له مقنعة. غير أن كل شيء يبدأ من لا شيء. دائماً. ولدت أنت بلا سبب، وكذلك أنا. لا علة لوجودنا هنا في هذه الدنيا، لكن، لنا أهواء وأغراض، لسث أدري، ففي بعض الأحيان ترغب في أن تفعل شيئاً فحسب، وتنازعك نفسك إليه، كأن ترغب في لكم أحدهم، أو ركله، أي أحد يثفق وجوده هناك. السبب الوحيد لحدوث ذلك لك هو مصادفة وجودك في مكان بحث فيه أحدهم عن امرئ ليلكمه. ذلك كل شيء».

«ذلك كل شيء»؟ كزرت الكلمات دون أن أظفر بمغزاها .

«أجل. ذلك كل شيء. لا يهمني أمرك. ولا أكرث لما يفعله بك نينوميا والآخرين. قد أكون هناك، لكنني لا أفكر في الأمر. لا رأي لي في الموضوع، ولا يفيدني في شيء. لذا، أجل، ذلك كل شيء».

قلت بهدوء «وإذا فأنت تعتقد أنه ليس من السوء معاملة الناس هذه المعاملة؟ زفر موموز مزة أخرى، وقال «زؤيذك. أتحسب أن لهذا علاقة بالحسن والسيء؟ ليس هذا ما أعنيه. إنما حاولت توضيح الأمر فحسب».

لم أقدر على الكلام ولا على الحركة، ولم أعرف بم أجيب، فوقفت هناك أنظر إلى ركبتي موموز. فرقع أصابعه.

«لا معنى لهذا كله. يفعل الجميع ما يحلو لهم فحسب. تسيطر عليهم نوازع النفس تلك، فيسعون إلى إرضائها. ما من شيء حسن أو سيء، وإنما هناك شيء يريدون فعله، وتهيات لهم الفرصة لفعله. وهذا ينطبق عليك أنت بالمثل. أنا على يقين من أنك إذا أردت فعل شيء، وكان بوسعك فعله، فستفعله، أليس كذلك؟ إنه المبدأ نفسه».

صحت قائلاً «أنت مخطئ». خمشت باطن جيبي بأظفري. «إنك لا ترى الأشياء إلا كما ترغب. ليس المبدأ نفسه أبداً. ثقة فرق كبير بين أن تقصد مكاناً تود الذهاب إليه وبين أن تلکم أحداً بلا سبب».

«لا أقول إنهما سيان، بل المبدأ نفسه. أتعرف ما أقصد؟»

قلت «إنك أغرّف من ذلك. تعرف أن ما تفعله خطأ»

هز موموز كتفيه، وقال «لست أدري. لكنني، حقاً، لا أكثر». .

سأله «ولماذا، إذا، تفعلون فعلتكم دائماً بحيث لا يكشفكم أحد؟ لأنكم تشعرون بأنكم مذنبون. لذلك تأمرونني دائماً بالأنا أنبس بكلمة وبأن أخفي كل شيء عن المعلمين . . . لذلك لا تتركون أي علامات علي. إذا كانت تلك نوازع فطرية فلم لا تفعلون ما تفعلون أمام الجميع؟ لأنكم تعلمون أنه خطأ. لذلك لا تفعلونه بمرأى ومسمع من الجميع».

عبس موموز وبدا كأنه نسي شيئاً، وقال «ولم نفعل ذلك؟ وما أثر ذلك؟»

قلت «لأنكم إذا كنتم تعتقدون بصحة ما تصنعون فأليق بكم أن تفعلوه على الملأ».

قال موموز «أحسب أنني قلت لك إن الأمر لا يتعلق بالصواب والخطأ. ألا تسمعني؟ لا أحد يفعل شيئاً لأنه صواب. لا يفعل الناس الأشياء لهذا السبب».

«ذلك ليس . . . ذلك ليس صحيحاً».

«بل صحيح».

زفرث زفيراً طويلاً. رفعت نظري وهزرت رأسي. برز الهواء وأظلمت السماء. إذا خررت عيني فسأرى حشرات بيضاء تتطاير على حافات الضوء. خلعت نظارتي وعركت عيني محاولاً تذكر كل ما قاله موموز، ولم أفليح. كل ما استطعت فعله هو الوقوف هناك. قلت «لو كنت مكاني وقال لك أحدهم هذه الأمور كلها، فهل ستصدقها؟»

«ما الذي يجعلك تعتقد أنني أريدك أن تصدقني؟ لست بحاجة إلى موافقتي. أنت خُر في اعتقاد ما يحلو لك».

«لذلك . . .»

«اسمعي. لا وجود لذنبا جميلة حيث الجميع يفكر على النحو نفسه ويفهم بعضهم بعضاً فهماً حسناً. لا وجود لها. قد تظن أنها موجودة، لكنها ليست حقيقة. إذا أمعنت النظر في ما يحدث فستجد أن كل امرئ يعيش في عالم يخضه. وعندما

يتلاقى . «.

«ذلك هو اعتقادك . «.

تابع موموز حديثه.

«عندما يتلاقى الناس يبدون كأنهم مترابطون وهم ليسوا كذلك. مثلما قلت أنت قبلاً؛ إنك تعتقد أن الآخرين يتنفرون عليك بسبب عينيك، وهذا هو ما لا أرى له معنى، وليس يهمني أن تسوء أحوالك وأنت لا تستطيع النوم. لا شأن لي بذلك، ولا أشعر بشيء نحوه. لا شيء. لم تخطر مشاكلك ببالي البتة، حتى إنني لا أراها تنفراً. ولست أعني بكلامي هذا نحن الاثنين فقط، فهو يشمل الجميع. لا تجري الأمور مثلما نرغب ونشتهي، فلا تأثير لرغباتنا في ما يحدث في الحياة. جميعنا عالق في أخلاقه الخاصة سعياً إلى الحصول على ما يريد».

تنحنح واستأنف كلامه.

«ما عنيته هو أنك إذا أردت أن تمنع ما يحدث لك فخيارك الوحيد هو أن تفعل شيئاً بنا. بنينوميا. ومثلما قلت لك، لا يهمني ذلك. ولا أرجو منه نفعاً. إنه شيء خطر ببالي في هذه اللحظة. فكرة. فرصة حانت. لذلك نقف هنا نتحدث، أليس كذلك؟

قلت مهمهماً لنفسي أكثر من قلبي له «وماذا عن عواطف الناس؟

قال موموز «ماذا عنها؟ أليس جلياً أن لا أحد سيحفل بعواطفك؟ لا تقل لي شيئاً غيبياً مثل أن ثقة ما يوجب علي التفكير في عواطفك. من ذا الذي يفعل ذلك؟

ضحك موموز بصوت عال. انعقد لساني وأنا أراه مستغرقاً في الضحك. لم يستطع التوقف.

«كله سيان. الفن، الحرب، كل شيء. هذا طيب المذاق، وذاك جميل. هذا صدق، وذاك كذب. ذلك هو كل حديث الناس. ولا نهاية له. إنه يستمر فحسب. الناس لا يخرسون، فهذه هي الحياة. لا يهم إن غضبوا أو فرحوا، فهم يستطيعون هذا الهراء».

هز موموز كتفيه وحرك رقبته ففرقت مفاصلها.

قال «لكن هذه النوازع تخيفني أحياناً ولا أجد من يحميني من نفسي».

قهقهه موموز. اعتقد أن ذلك كان مضحكاً، واستغرق في الضحك حتى تدلت حُصل شعره على عينيه. ثم أبعدھا واشتدَّ ضحكه. تَلَّالَات أسنانه البيضاء بين شفثيه.

«يا هذا، إلى متى سنتكلم؟»

لم أعرف بم أجيب.

قال مبتسماً «أحسب أنني وضحت لك الأمر توضيحاً حسناً».

نظرت إلى عينيه.

«ما أنت بفاعلٍ إذا أنا قتلتُ نفسي؟»

قهقهه موموز مِرَّةً أخرى.

ولم يمنعني ضحكه من الكلام.

«ماذا لو تركتُ رسالةً أكتب فيها كل ما فعلته؟ كل شيء بحذافيره».

قال موموز وقد كفَّ عن الضحك «حسناً. أحسب أن ذلك سيكون مزعجاً، لكن لم سيهمني الأمر على أية حال؟ ما نحن إلا صبيان. لا نقترف جرائم في هذه السن. وهذا التنمر سيمضي في طرفة عين، فهو ليس شيئاً حاسماً. أمورٌ كهذه تخضع للتفسير والتأويل».

سألته «ألا تشعر بالذنب؟»

«ذنب؟»

«لا أقصد عندما تكون مع نينوميا والآخرين. بل عندما تكون بمفردك، ألا تشعر

بالذنب ممَّا اقترفت يداك؟»

قال «أبداً».

«لكن، إذا عانى فردٌ من أهلك هذه المعاناة، أفلا يؤلمك ذلك؟»

«اللعة! بلى سيولمني». فاجاني وجه موموز. «أتظنني وحشاً من الوحوش؟ لي احث صغيرة، لا أعلم إن كنت تعرف هذا، وأحبها كثيراً، ولن أسمح بحدوث شيء كهذا لها».

«أترى؟ كيف تؤذيني أذى لا تتمناه لامرئٍ من لحمك ودمك؟»

«هذان شيئان يختلف أحدهما عن الآخر. لم لا أفعل بالآخرين أفعالاً لا أريدهم أن يفعلوها لأختي؟»

شخص موموز ببصره نحوي. وقال «إذا كان الأمر لا يروقك فمنعه يتوقف عليك لا على أي أحد آخر. إنه بهذه السهولة. أخرى بك أن تعرف أن تلك القاعدة القائلة بأن تعامل الآخرين مثلما تريد أن يعاملوك ما هي إلا هراء. هراء محض. ولا يقول هذا لنفسه إلا من لا حول له ولا قوة ولا موهبة. أفق يا هذا».

ضحك.

قال «هيا، فكل في الأمر. مثلاً، انظر إلى هذا الرجل». أشار موموز ورائي محزناً فكه. التففت ورأيت عائلة من ثلاثة أفراد تسير نحو البوابة. ربّما كان الأبوان في منتصف الأربعينيات من العمر وابنتهما أكبر منّا بقليل. كانت ترتدي زي المدرسة الثانوية.

«لست أعرفهم كما ترى. هب أن ابنته ظهرت عارية في فيديو أو جامعها رجال من هنا وهناك، نعلم أنا وأنت ماذا سيكون رده. قد تكبث عواطفنا معظم الوقت، لكن ثقة ما يثيرها ويخرجها أحياناً. كلانا يعلم أن هذا الرجل يشاهد أفلاماً إباحية يجمع فيها شباب فتيات، وفي حياته الحقيقية يزور أماكن تمكنه من مجامعة فتيات. يفعل ذلك كأنه شيء طبيعي. لكن أتعرف؟ لكل هذه الفتيات آباء. عندما يباعد ما بين ساقني فتاة، أتحسب أنه يخطر بباله أنها ابنة أحدهم الصغيرة؟ كلاً قطعاً. لكن ذلك هو معنى أن تضع نفسك موضع شخص آخر، أليس كذلك؟ أعرف، أعرف أن الأمر ليس سيئاً ويختلف بينك وبين أحد آخر، أليس كذلك؟ حتى إنه لا يمت إليه بصلة. لكن ثق بأن ما من رجل يفكر في ما يشعر به والد فتاة حينما تنزع هي عنها

ثيابها وتباعد ما بين ساقئها. لا تُسء فهمي. ذلك ليس أمراً سيئاً. لا شأن له بالحسن والسيء. الجميع يفعلون ما يؤثون فعله، وما يصلح لهم». عرك عينيه وهو يسترسل في حديثه.

«كان الناس سيعيشون في دنيا بلا تناقض لو أنهم كانوا يحيون وفق قواعد ذهبية. لكننا لا نعيش في دنيا كهذه. لا أحد يعيش فيها. الناس يفعلون ما يصلح لهم، وما يسعدهم. وإذا إن لا أحد يرضى بالأذى لنفسه، يثفئفه الناس ويكثرون الكلام فيحسن معاملة الآخرين، ومراعاتهم، وسوى ذلك من هراء. لا تقل إنني مخطئ، فالجميع يفعلون أشياء لا يؤثون أن يفعلها بهم الآخرون. الحيوانات المفترسة تأكل فرائسها، ولا نفع يرجى من المدارس سوى فصل التلاميذ الذين يثصفون بصفات تؤهلهم للنجاح عن الآخرين الذين لا يثصفون بها. هذا هو المغزى بإيجاز. أينما وجهت وجهك، فثمة قوي يسيطر على ضعيف. لا مهرب حتى للحمقى الذين يظنون أنهم ظفروا بالإجابة من ترديد أقوال مأثورة جميلة تصف كيف ينبغي أن يكون حال الدنيا. لأن الدنيا الحقيقية تترئص بهم في كل مكان».

أحسست بثقل وجهي، وقلت «لا جدوى إذاً. هل نواصل العيش فاعلين ما يحلو لنا؟» هدا صوتي هدوءاً شديداً حتى تعذرت معرفة من كنت أكلّم، موموز أم نفسي. قال لي «عندما كنت صغيراً، ربّما قيل لك إن مصيرك جهنّم إن فعلت شراً. أليس كذلك؟»

لم أجبه.

ضحك، وقال «إليك هذا! لا وجود لجهنّم والجحيم. كل ذلك زعم وتلفيق. لا معنى لأي شيء، فكان لزاماً على الناس ابتداع معنى. الضعيف عاجز عن مجاراة الواقع. لا يقدر على تحمّل الألم والحزن، دع عنك تحمّل حقيقة أن الحياة بلا معنى، وهي حقيقة ظاهرة».

«لا أحد يفكر هكذا»، بمشقة خرجت مني الكلمات.

قال موموز هازئاً «إلا من كان بذي عقل سليم. اسمع، إذا كانت هناك نارٌ فنحن

نعيش فيها الآن، وإذا كانت هناك جثة فنحن أيضاً نعيش فيها الآن. هذا هو كل شيء.  
وهو ليس بذي شأن. أتعلم؟ أحسب أن ذلك عظيم»

بادلته النظر.

قال «كف عن تلقين نفسك هذه الترهات الحمقاء. ليس لك إلا أن تحمي نفسك».  
«ماذا لو . . .». قلت وزفرت قليلاً محاولاً تنقية رأسي من الفوضى. «ماذا لو قلت  
إنني سأقتلك».

قال بلا تردد «سأقول لك اقتلني إذا كنت تعتقد أنك تستطيع ذلك. افعل ما  
تستطيع. افعل ما تشاء. لا أحد سيمنعك. وهنا مكمن المسألة، فعلى كثرة ما سنج لك  
من فرص لم تقتل أحداً منا. حسناً، القتل شيء متطرف. ولكن، فكر في ما حدث في  
ذلك اليوم عندما أدخلنا رأسك في كرة الطائرة وركلناك في الأنحاء. فعلنا ذلك، لكنك  
لم تردّ بالمثل قط. لم لا؟ تلك هي المشكلة. ربّما قلت لنفسك إنهم كثر، لكن لم تكن  
تلك هي المشكلة. ماذا لو قلت لك أدخل رأسي في كرة واركني بكل ما أوتيت من  
قوة؟ وإنني لن أغضب، ولن أردّ الركل. أتعتقد أنك ستفعل ذلك؟

«لا . . .» بدأت أتكلّم لكن كثرة اللعاب منعتني. بلعت ريقاً وقلت «لا أريد فعل  
ذلك».

قال موموز متبشماً «أترى؟ تلك مشكلتك. هل لأنك لا تريد أم لأنك لا تستطيع؟ ما  
الذي يمنعك من مواجهتنا بسكين؟ إذا حاولت فستغيّر الأمور، لكنك ما زلت غير  
قادرٍ على ذلك. لماذا؟ هل أنت خائف من أن يُلقى القبض عليك؟ لك فعل ذلك ولن  
يكون جزماً».

«لا ضير إذا كان جرمًا»، لفا خرج صوتي انتفض جسدي كله. «إنما لست أريد فعل  
ذلك».

ضحك موموز، وقال «ألأنك ستشعر بالذنب؟ حسناً، ولكن إذا كنّا نحن لا نشعر  
بالذنب فلماذا تشعر أنت بالذنب؟ أيّنا على صواب؟ أتعرف؟ كلا الأمرين سيّان».

كنت صامتاً.

«المهم هو أنك لا تستطيع فعل ذلك. لا تستطيع. لذلك لم تقل قط إنك ستقتلنا حتى عندما جعلنا منك كرة قدم. لم تفعل أي شيء لأنك لا تستطيع. في هذه الدنيا بعضهم يستطيع ارتكاب أفعال لا يستطيع بعضهم الآخر فعلها. في المدرسة التحضيرية طفل ثري يأمره الأطفال الآخرون بجلب مالٍ من البيت كل يوم. وبعض الناس يطيب لهم مشاهدة آخرين يستمنون أمامهم. ونحن لسنا كذلك. لا أقول إن بعضنا أفضل من بعضنا الآخر. عنيث أن هناك من يستطيع فعل أمور لا يستطيع آخرون فعلها ثقة أشياء يوثون فعلها وأشياء لا يوثون فعلها. لكل امرئ ما يحب وما يكره. ما أسهل الأمر وأيسره! لا يرتكب بعض الناس إلا أفعالاً يأمنون عقوبتها».

غالب موموز تتأؤبه.

«لكن لا شيء من ذلك يستلزم سبباً لحدوئه. تأتي هذه الأفعال بلا سبب. نستطيع فعلها. نستطيعها نحن. ولا نستطيعها أنت. ولا سبب لذلك أيضاً. هكذا هو الأمر فحسب، في الأقل الآن. أو بعد سبعة أشهر، أو سنة؟ من يعلم؟ من يهتم؟»

## الفصل السابع

عادت إلي حواشي وتنبهت لقا نادتي الممضة .

قادتني مرة أخرى إلى غرفة الفحص. دخل الطبيب وعاین أنفي وسألني عفا إذا كنت أشعر بتحسّن.

ضحك، وقال «اسمع، إننا لا نرغمك على المجيء إلا إذا عرض عارض ما، لكّلك ينبغي أن تتابع حالتك بنفسك وتكون محيطاً بها». اعتذرت له عن تأخري.

أدنى وجهه من وجهي وفحص ملامحه وكان كأنه يرسم دائرة حول أنفي بأنفه، وقال «أنت محظوظ، أنفك يبرأ، وفي سبيله إلى التعافي التام. هل يؤلمك؟

«لا، ما عاد يؤلمني».

«لحسن الحظ أنه لم يكسر».

قلت «أدرك ذلك».

«هل تناولت مسكّن الألم؟»

«مرة واحدة فقط، في الليل».

أوما الطبيب برأسه إيماء الرضا، ثم أدار كرسيه نحو مكتبه.

«لو كان قد كسر لساء الأمر». استدار ليكتب شيئاً في سجل بياناتي، وقال «لقا

كنت فتى، ربّما أكبر منك بقليل، كسر أنفي».

دار بكرسيه وأمسك بأنفه بإبهامه وسبّابته.

«وقع بيني وبين أحدهم عراك. انحرف أنفي عن موضعه انحرافاً كبيراً. كنّا نتلاكم

ولم أتنبّه للأمر. بعد ذلك، عندما نظرتُ إلى وجهي في المرأة لم أصدق ما رأيت. لم

يكن شيئاً يراه المرء كلّ يوم، أن يثجّه أنفه إلى اتجاهٍ خطأ على ذلك النحو. كذتُ

أجراً. في أكثر الأوقات ينظر المرء إلى المرأة ويرى أنفه في موضعه الصحيح، لكنّ

ما رأيته كان كشيء خرج من لوحات بيكاسو. أتعرف ما أقصد؟ أخذتني ماما إلى الطبيب لكنه كان دجّالاً. وفي الحقيقة، كان أكثر الأطباء في ذلك العهد يجهلون ما يفعلون. كان أنفي ينزف، فادخل هذا الطبيب فيه عصا شبيهة بعود طعام، لإرجاعه إلى وضعه المستقيم. دفعه هناك دفعاً دون تخدير. حتى الآن، يقف شعر بدني كلما فكّرت في ما حدث. أترى؟ قُشعريرة».

رفع ردف معطفه وأشار عليّ بالنظر. نظرت ورأيت شعيرات ذراعه واقفة.

«بعد ذلك، لم يختلف حالي كثيراً عن حالك. نصحتني الطبيب بالانتظار، لكنّ الألم استمرّ سنة كاملة. وفي الليل على السرير، إذا مشّ اللّحاف أنفي كنت أتألم ألماً شديداً. في ذلك الحين، كان الأطباء يعالجون الأمراض على نحو مختلف. وما دام العظم قد برئ فقد كان ذلك يُعدّ نجاحاً. ذاك سبب اعوجاج أنفي حتى اليوم».

لما ذكر الأمر، استطعت أن أرى انحراف أنفه قليلاً عن موضعه. لكنني فكّرت في أنّه مقارنةً بأنوف آخرين، أيّما عني ذلك، كان أنفاً حسن الهيئة، فقد شمع بكبرياء بين عيّنيه ودون اعتذار.

ضحك، وقال «هذا هو حال الحياة. اعتنِ بأنفك».

قلت «أعرف، فليس عندي إلا أنف واحد».

ضحك، وقال «هذا صحيح! أنف واحد هو كلّ ما عندك».

قال لي الطبيب إنّ الألم سيذهب بعد مدّة يسيرة، لكنني أستطيع المجيء في أيّ وقت إذا عرض عارض.

لما شكرته وهممت بالخروج، سألني سؤالاً آخر.

«منذ متى وعينك على هذه الحال؟»

نظرت خلفي مدهوشاً.

«أما من تدبير للعناية بها؟»

لم يزعجه عدم رأيي. كانت الممرضة واقفة عند الباب وقد رفعت الستارة لي  
لأخرج، وكانت تنظر إلى الطبيب أيضاً. ولما عجزت عن الرّد وقفت إلى جانبها أبادله  
النظر.

«ألا تلقى مشقة وعناء من ذلك؟ بعضهم تعتريه الشقيقة»

برفقي أومات براسي واغمضت عيني. اخترق أذني رنين خافت ثم خلف صمتاً  
مطبّقاً. لاحظت ثقل لساني وجفافه وتمليت لو ألي كنت قد شربت شيئاً بعد حديثي  
إلى موموز.

قلت «ذات مرّة، عندما كنت طفلاً، أجريت لي جراحة . لكن عيني عادت إلى ما  
كانت عليه».

سأل الطبيب «كم كان عمرك؟»

قلت «خمس سنوات».

«لعلك تجزّب مرّة أخرى»، قال الطبيب، كأّن الأمر هين، «يبدو أنّك قصدت طبيباً  
هاوياً، وإن كنت لسث على يقين من ذلك».

كاد يضحك لكنّه كبّح نفسه.

«أمزح، أمزح. ما عليك إلا أن تجد الطبيب المناسب لهذا العمل. إنّها جراحة  
سهلة، على أنّها تقتضي الدقّة. إنّها من العمليات التي يُكلّف بها الأطباء الشباب حال  
تخرّجهم في كلّية الطب».

قلت كأّن الصوت لم يكن بصوتي «لكنّهم خذروا جسدي تخديراً كاملاً».

ضحك، وقال «ليس إلاّ لأنك كنت طفلاً».

بحذرٍ سألته مبتلعاً ريقِي «أهي جراحة يمكن إعادة إجرائها؟»

شرح قائلاً «ذلك يعتمد على الحالة. إلاّ أنّها ليست بمشكلة في حالتك. يحتاج  
بعض الناس إلى أكثر من عمليّة حتى ينجح الأمر. وإذا عذمت على الجراحة في

هذا الوقت فإن التخدير الموضعي سيفي بالغرض. إنها ليست جراحة كبيرة. فقط يشد الطبيب عضلة عينك قليلاً لتعود إلى موضعها الصحيح. ولا يطول الأمر لكن بعض الأطباء الشباب لا يشدّون العضلة شداً كافياً وبعضهم يبالغ في الشد. ذلك هو ما أقصد. عليك أن تجد الطبيب الصحيح لإجراء الجراحة. أنت محظوظ، عندنا اختصاصي في طب العيون. ناقش أمك في الأمر، وللتأكيد فقط، أضاف قائلاً «كنت ترى بعينيك كلتيهما في ما مضى. أليس كذلك؟»

قلت بتردد «عيني حواء منذ كنت في الثالثة من عمري، ولا أذكر كيف كانت قبل ذلك».

حك رأسه حكاً سمعته له صوتاً، وقال «في هذه الحال، ستكون بخير. منذ مدة ليست ببعيدة، كان عندنا صبي أصغر منك بقليل. قال إنه يريد لعب البيسبول للمحترفين، لكن عندما يكون المرء أحول العينين، فلن يتمكن من قذف الكرة عالياً والإمساك بها».

قلت «كلاً».

«قد لا تطمح إلى اللعب في بطولات كبرى، لكنك إذا تعرّضت لحادث آخر وكسرت أنفك فلن تطيق الألم. أمّا والحال هذه، فبين الجراحة وإعادة التأهيل، سيكون عليك قضاء وقت هنا، لكنني أعتقد أن الأمر يستحق ذلك»

نقر طاولته بأصابعه كأثماً بإيقاع فرقة مشاة، وقال «الخيار خيارك».

«حسناً»، قلت ولم أكن على يقين مما سأقول بعد ذلك. وقفت الممرضة إلى جانبي ممسكةً بطرف الستارة تنظر إلي ثم إلى الطبيب.

بعد حين، أضاف قائلاً «الجراحة لا تكلف مالاً كثيراً».

«حقاً؟ قلت بصوت أعلى مما قصدت. لم أسأل قط كم دفعنا من المال للعملية التي أجريت لي عندما كنت في الخامسة، ولم أعرف شيئاً عما جرى آنذاك، لكنني الآن شعرت بتغيّر ما. اعتراني توثر غريب لما عرفت أنه يمكنني أن أغدو سليماً معافى. بعملية يسيرة يستطيعون علاج عيني. لم أتخيل قط أن هذا ممكن. ظننت أن

إخفاق العملية في الماضي إنما غنى أن عيني ستظل على هذه الحال طوال حياتي. يمكن أن تكون عيني . . سليمة؟ لم أقدر على تصديق ذلك. كان شيئاً لا يُصدق. وقفت هناك عاجزاً عن كظم تصفد أنفاسي. وضعت يدي على فمي ووجدتني أعطس أظافري. لم أستطع التفكير فيما ينبغي فعله بعد ذلك. لاح وجه موموز أمامي. ظلّه في ضوء مصباح الشارع. تذكّرت ضوء غرفتي المعتم، وانعكاس صورتي. في المرأة، فقط عيني اليسرى المتعبة تستطيع إيجاد نظيرتها. أما عيني اليمنى، فكانت كعادتها، تتحرّك نحو الزاوية، وإذا وضعت إصبعي أمامها، فأبني لا أرى أكثر من شكل غائم لجلدي.

ضحك الطبيب، وقال «إذا كنت مهتماً بالأمر فحدّد وقتاً. إنها عملية قليلة التكاليف».

قلت مجاهداً للتلفّظ بكل كلمة «كم ستكلّف؟»

عقد ذراعيه وأغمض عينيه وغضّ جبهته كأنه يللم أفكاره فيها. همهم قبل أن يتكلّم.

ثم قال «فكّر في ١٥٠٠٠ ين».

قلت «١٥٠٠٠ ين».

قالت كوجيما «لا أصدّق أنّه منتصف الخريف». نظرت إليّ وضحكت.

لم يكد تشرين الثاني يبدأ حتى برد الهواء. فاحت سترة كوجيما برائحة كيماوية ذكّرتني بالشتاء. الروائح تذكّر المرء بأمور شتى. وأكثر من ذلك، تتجاوز الروائح العقل لتجزّ الكفين والأنف مثيرة العواطف حتى قبل أن تصبح عواطف.

منذ مدّة طويلة لم ألتق كوجيما، فاعتراني التوتّر في الليلة التي سبقت اللقاء، ولم أستطع تهدئة نفسي وأنا أنتظرها عند درج النجاة من الحريق. تذكّرت أوّل مرّة التقينا فيها في متنزه الحوت، حيث شهدت المساء يقترب، والسماء تظلم مؤذنة بحلول الليل أمام عيني. كأنّ ذلك حدث في حياة أخرى، لكنّه حدث في تلك السنة نفسها، إنما في موسم مختلف فحسب .

قالت «أعلم أننا لم نتكلم كثيراً لكنني كنت في الحقيقة على ما يرام».

مالت كوجيما على الدرابزين مولية ظهرها للشمس الجانحة للغروب حيث البلدة تحتنا تلاقي السماء. وهي تتحدث، ظلت تعقد ذراعيها وتفردهما.

كنت كلما رأيت كوجيما في المدرسة عن بفكري ما ظهر فيها من هزال، لكنني لفا رأيتها من كتب بعد مدة طويلة بدت أشد هزالاً. ولم تكن في الأصل فتاة سميكة، لكن بدانة الطفولة اختفت من وجنتيها ومن ذراعيها وساقيها، فأصبحت كأنها شخص آخر. وكان ثوبها المدرسي فضفاضاً أكثر من المعتاد. ومن ملامحها وبشرتها بدت متعبة. جسدياً في الأقل. تحت حاجبتيها كانت عيناها ناريتين وباردتين في وقت واحد، وأحد مفا كنت أتذكرهما. أحياناً كانت تعقص شعرها. كان قد طال كثيراً، كأنها تعقدت إطالته. تمددت أطرافه المتكسرة مثل مكنسة قش، وانتشر الوبَر عليه. من قرب، بدت التفاصيل مختلفة جداً.

قالت «قرأت رسائلك مراراً. إنها دائماً تشعرني بتحشن. ماذا عنك؟ هل قرأت رسائلي؟»

قلت إنني قرأتها. أومأت كوجيما برأسها مبتسمة برضا. لم أستطع إخبارها بأنني لم يكن بمستطاعي الرد على رسائلها، وهي لم تسألني.

«أتعلم؟ إنني أدرك ما تشعر به وإن لم نلتقي ولم نتحدث». وقد أضحكها كلامها هذا. ولم أعرف بم أجيب فانتظرت قليلاً ثم سألتها عما إذا كان وزنها قد خف ونقص.

قالت إنها منذ عهد قريب لم تعد تُقبل على الطعام كثيراً.

سألتها «ألا تستطيعين الأكل؟»

قالت «ليس كذلك. إنها علامة، علامة جديدة».

«علامة جديدة؟»

قالت مبتسمة قليلاً «أجل».

قلت «لكلك يجب أن تأكلي».

قالت «أكل، إنما أكل بلا إكثار». نظرت كوجيما إلي وقالت «عدم الأكل له مغزى عندي».

سألته مزة أخرى «كعلامة»؟

«صحيح، كعلامة».

«علامة تخض أباك»؟

«تماماً، عدا أن مغزى العلامات تغيير».

سألته «كيف تغيير»؟

«حسناً، في أول الأمر، ظننت أن العلامات كانت وسيلة لئلا أنسى أبي. مثلاً، كان حذائي الرياضي المئسخ مثل حذاء أبي. الأمر نفسه مع بشرتي، فما دمت لا أستحم سيبقى جلدي كجلده، وأستطيع الاحتفاظ برائحته. لكن الأمر ليس كذلك، لم يعد كذلك. أعني أنني تعلمت أن ما يربطني بأبي ليس ذكريات فحسب. لا شأن له بالتذكر فحسب. ما قصده هو . . . أن ضعفنا هو ضعف جميل، وهو ما نحميه دائماً، كل بمذهبه. إنه الشيء الذي نكافح لأجله».

تكلمت كأنها كانت تضغط كل كلمة على كفي. بدت كوجيما مثل صورة خلفها ظلمة ممتدة.

«وليس بيدنا فعل شيء إلا ذلك. ليس لأجلنا فحسب، بل لأجل الصبية الآخرين أيضاً، حتى إذا هم لم يدركوا ذلك. لكن عدم إدراكهم هذا ليس مهماً. كل ما يهم هو أننا نحن، أنا وأنت، نفهم ضعفنا، ونُدركه. وبذا نعيش مع هذا الضعف ونقبله قبولاً تاماً، وتلك هي أعظم قوة في الدنيا كلها. لا نقبل ضعفنا فقط لأجل أبي أو لأجلهم هم أو لأجلنا نحن. إنما نقبله لأجل جميع الضعفاء في كل مكان، باسم القوة الحقّة. إن كل ما نلقاه من أذى إنما نلقاه لكي نسمو ونعلو. نلقاه لأجل الناس الذين يدركون أهميّة قبولنا لضعفنا. لذلك أنا لا أكل. ذلك هو ما يعنيه عدم الأكل».

وقفت كوجيما أمامي ترمقني وهي تتحدث.

«واعتقد أنك توافقني الرأي، تفهم الأمر أكثر من أي شخص آخر أنت أيضاً، كان وزنك خف. أظن أنك أيضاً لم تكن تأكل كثيراً. إنك تفهم حقاً. تفهم ما اعتقده».

«أما أنا»، بدأت أتكلّم لكنني توقفت. لاحظت كوجيما ذلك وتبسمت، كأنها تقول إن لا شيء يقتضي الحزن. هبت الريح في السلاالم، وبعد قليل، استطعت شم رائحة كوجيما. لم تكن رائحتها قويّة هكذا من قبل، ليس حتى عندما كنا نجلس جنباً إلى جنب. كانت رائحة شخص لم يستحمّ أياماً متوالية. نكسّ رأسي ناظراً إلى طرفي حذائي.

قالت «للجميع شأن وأهميّة عندي. أبي وكل من لهم قوّة الضعف في معاناتهم. لكن شأنك أكبر. أكبر من شأن أي أحد». تبسمت وقالت «مهلاً، يبدو أنفك سليماً». قلت «نعم».

قالت «يبدو مثلما كان. كان مُسوّهاً .. في ذلك اليوم». «أعرف».

«ماذا لو كان قد كُسِر؟ هل كان العظم سيبرز؟»  
«كان سيميل وينحرف».

«مُحال».

«الأمر جدّ».

ضحكت، وقالت «لست أدري. أنف قويّ كأنفك قد يميل وينحرف فحسب. لكن أنفاً صغيراً كأنفي كان سيتهشم».

قلت «ومع ذلك أعتقد أن أنفي كان يمكن أن يُكسّر».

لم أعرف من أين أبدأ لأروي لها عمّا حدث في المستشفى، لكن كوجيما كانت تصغي، فآثرت الموضوع قائلاً إنني لم أقصد المستشفى منذ سنوات، وإن الطبيب

الذي عاينني كان لطيفاً جداً، وقد كسر أنفه عندما كان في مثل عمرنا، إلا أن طبيبه المجنون أدخل عود طعام في أنفه ليعيد العظم إلى موضعه. لم أذكر لها أنني صادفت موموز وقلنا ما قلناه. أردت إخبارها بقلانه، لكنني لم أجرو، ولم أكن على يقين مما إذا كان من الحكمة إخبارها.

في البيت وفي المدرسة عانيت طويلاً مما قاله موموز. أقنعت نفسي في بعض الأحيان بأن ما قاله هراء، ولكنني في أحيان أخرى رأيت أنه كان مُصيباً. ولم أزل أراوح بين هذه الخلاصة وتلك غير قادرٍ على تحديد أيٍّ منهما هو الصحيح. وقد لَازمني يقينٌ بأن تفكيري مشوبٌ بعيبٍ جوهريٍّ جسيمٍ يقضي بحتميةٍ خطأ كل رأي، بسبب ما يضعه عقلي من افتراض مُسبق.

لكن كان لجِدال موموز وطأةٍ علي أكثر مما أفصحت، ولم يُعني ويؤازرنني ما كنت أحمل من مبادئ استقامةٍ وصلاح. ولقد راقبني موموز من مكانٍ مظلمٍ وراسخٍ وهادئٍ، مبتسماً فحسب، وهو ينظر إليّ مثلما كان قد فعل في تلك الليلة على المقعد. فكُرت في كوجيما.

مراراً قالت لي كوجيما إنَّ كل ما يحدث إنَّما يحدث لسبب. وكلُّما التقينا طمأنني وجودها إلى أننا، معاً، قويَّان لتجاوز هذا. كتبت إليّ رسائل. لم يمدَّ أحدٌ يده إليّ على هذا النحو من قبل. وسواء أَلْتقينا أم لم نلتق، فقد أعانتني على احتمال هذه الحياة. حتى عندما عجزتُ عن الردِّ على رسائلها التمسْتُ لي العذر وأرسلت إليّ الرسائل واحدةً تلو الأخرى. وقالت لي إنها تحبُّ عيني. في حياتي كُلها لم يقل لي أحدٌ ذلك. لا أحدٌ إلا كوجيما.

لكن، بعد أن حدث ما حدث في ذلك اليوم في القاعة الرياضية لم أستطع النظر إلى عينيها. كُلما أبهجتني كوجيما ونُفِث قوَّتها الغريبة المستعصية على التفسير تلك، رغم أنف تنفُّرهم عليها، شقَّ عليّ النظر إلى عينيها. لم أكن على يقينٍ من سبب ذلك. عدتُ بذاكرتي إلى الوراء وفكُرت في الراحة التي غمرتني بفضل كلامها وتبشُّمها في تلك الأيام الصيفية. والآن شعرت برئتِي تلتهبان. كانت كوجيما تتغيَّر، وقد أفرغتني رؤية ذلك من بُغد. أتى تغيُّرها بلا استئذان، وأحاط بالفسحة الصغيرة المشرقة جداً

التي أوجدتها لي، ليدفعني خارجها.

رغبت في مراسلتها لأول مرة منذ مدة، فكتبته إليها.

قالت باحثة في وجهي عن علامة على حياة «هل أنت هنا»؟

«أنا هنا».

أخذت كوجيما تخبرني برأيها في زيارتي إلى المستشفى. لم يكن هناك أحد حوالينا لكنها تكلمت بصوت خفيض، ولقا هبت الريح لم أتمكن من سماعها. دنت كوجيما مني وواجهتني. فاحت منها روائح شتى. شممته رائحة لعابها وعرقها وشيئاً حزيناً. سألتني عما إذا كنت أعرف سبب عدم وجود جناح ولادة في مستشفى كبير كذاك المستشفى. قلت لا أعرف فقالت قطعاً لا تعرف، فأنت لا تجزب أن تسأل، وضحكت، لكنها تظاهرت بالغضب. روت لي عن حادثة وقعت في المستشفى منذ عشر سنوات خلت. أومأ برأسي وهي تتحدث، وكنت أنظر إليها فحسب.

أحالتها الهزال شخصاً مختلفاً، وقد تبدى، مع ذلك، أنها كانت تمضي أوقاتاً طيبة. ما زالت على قيد الحياة، ورؤيتها على هذه الحال أشعرتني بالوحدة وبحنين استعصى على الوصف.

قلت عندما فرغت من سرد قصتها «كوجيما، كتبته إليك لأني أردت أن أتكلّم».

قالت «أجل، أعرف. لكن، لست أدري، فرؤيتك فقط أشعرتني بسعادتين».

كدت أبكي لقا سمعت تلك الكلمة. نظرت إلي كوجيما، مرتبكة قليلاً، لكنها ضحكت بعد ذلك. كانت خطوط وجهها جديدة علي. اصطككت أسناني وحاولت أن أهدأ.

«ثقة ما أريد قوله لك».

قالت «لك أن تقول لي أي شيء».

«إنه عن عيني».

كان الضحك الذي أحيا عينيها وشفيتها قد تبخر في الحال. نظرت إلي كأنها تشهد

حدثاً نادراً. أومات برأسها، لكن إيماءها ذاك خرج عفواً دون تكلف.

أخبرتها بما عرفت. بأنه إذا أجريت لي جراحة فستكون هناك فرصة لعلاج عيني.

أصغت كوجيما بهدوء، لكنها لم تتكلم حتى بعد فراغي من الحديث. أخذ الهواء يبرد على نحو ظاهر، وبدأت السماء تمطر الرذاذ لم يكن ممكناً رؤية المطر لكن النسيم حمله إلينا وبأل وجناتنا. هزّزْتُ كتفي، ثم وضعت يدي في جيبني. فعلت كوجيما الشيء نفسه وهي واقفة، ووضعت يديها في جيبني قميصها.

قلت «ستبتلين. تعالي هنا».

لم تكثرث كوجيما لهذا.

وقبل أن تلوذ بالصمت، قالت «إذا . . .».

صمتُ أنا أيضاً منتظراً كلامها.

بعد صمتٍ طويل، سألتني وهي تكاد تكلم نفسها «إذا سُجّري لك العملية؟  
«لست على يقين بعد».

سألت «لماذا تُخبرني إذا؟ هل تلتمس نُصحي؟»

قلت «كلاً، ليس الأمر كذلك. فقط أردت إخبارك بما عرفت»

سألت «لماذا؟ أي فرق بين إخباري وعدم إخباري؟»

«حسناً»، قلت ولم أجد الكلمات. لعقت شفتي مراراً باذلاً جهدي لتهدئة نفسي، وفي آخر الأمر تابعت قائلاً «قلت لي إنك تحبين عيني»

لم تتكلم هي ولم أتكلم أنا.

كرّرت كوجيما قولها وهي تنظر إلى الأرض «إذا سُجّري لك العملية. أنت . . أنت لا تفقه شيئاً حقاً».

«ربّما. وربّما لن أمضي فيها . . .».

«ليس رُبّما. بل إنك لن تمضي فيها».

نظرت إليّ.

«عيناك هما أهم أعضائك. إنهما أنت. لا أحد آخر له عيناك. لم أولد بعلامة فكان عليّ ابتكار علامتي. أما عيناك فهما هبة، وها أنت ذا تريد أن تتخلص من ذلك، من الشيء الذي جمعنا؟»

قلت «وما زال يجمعنا. لا أعلم إن كنت سامضي في العملية. فقط أردت أن أقول لك إنني عرفت أنّ عيني يمكن أن تُعالج».

قالت «كاذب! أجزم أنّك فرحت لقّا عرفت ذلك. ستمضي فيها وتهرب».

سألت «أهرب؟ مم؟»

قالت «من كلّ شيء. من المدرسة، من نفسك. من هذا»

عركت كوجيما عينيها براحتيها.

«لا تبكي يا كوجيما».

قالت «أنت تهرب مني».

هزّزت رأسي.

قلت «كلّا، ليس هذا هو ما أقوله. ليس هذا. أشعر بأنني أكّرر قولتي، لكن . . .».

«لا بأس» ، قالت وهي تنظر إليّ. تلاّأت عيناها بالدموع، وكانت ترتعش وأنفاسها تتصعّد. «لكّني لن أتوقّف. لن أتوقّف».

«كوجيما . . .».

«لا أستطيع». ترقّرت دموعها. «إذا كان ذلك هو ما تؤدّ فعله فإذهب وعالج عينيّك واتبع الصبية الآخرين الذين سيتركونك عندئذٍ وشأنك. وإذا كان ذلك هو ما تريد فلا شيء يمكنني قوله، لا شيء يمكنني فعله».

سألتها «أتظنين أنني إذا عالجت عيني فذلك يعني أنني أتبع نينوميا والآخرين؟»  
قالت «تماماً. فهذا لا يتعلق بنا نحن الاثنين وحدنا»  
بادلتها النظر بصمت.

«حتى إذا حدث شيء لنا، حتى لو متنا وما عدنا نواجههم، فإن الشيء نفسه سيحدث لشخص آخر، في مكان ما. الشيء نفسه. الضعفاء دائماً ما يخبرون هذا، ولا يمكننا فعل شيء حياله. لأن الأقوياء لا يندثرون أبداً. لذلك تريد أن تتظاهر بأنك مثلهم، أليس كذلك؟ توذ أن تلحق بهم. إنك لا تفهم الأمر حقاً. إن ما يحدث لك إنما هو اختبار. المهم هو أن تتجاوز هذا. وهو شأن طالما تكلمنا فيه. وإنه هو الشأن نفسه الذي نتكلم فيه.»

«كوجيما، أرجوك . . .»

أطبقت شفثنيها. صوت شهيقها ملأ المكان. أزعجني انهمار دموعها وقد بدا أنه بلا نهاية. بقينا لا نتكلم مدة طويلة. من بغد سمعت صفارة إنذار سيارة إسعاف. وعلى مقربة كان طفل يبكي. وقفت كوجيما في مكانها لا تقول شيئاً، دقيقة تلو أخرى.

أخيراً قالت «ظننت، ظننت أننا صديقان».

قلت «إننا صديقان. صديقان».

«كلاً، لسنا كذلك. ولا يمكننا أن نكون».

«مؤكّد أنه يمكننا».

هزت رأسها بحزم.

«كوجيما».

كانت تبكي وتغيّر صوتها من أثر الدموع وهي تقول «واضح أنك ستمضي في العملية».

قلت «كوجيما».

«حسبك. لا تتلفظ باسمي هكذا».

أخذ كلامها يتقطع. أغمضت عينيها وبكت بصمت لكي لا أسمعها. اهتز كتفاها من مجاهدة البكاء. لم أشهد بكاء مريراً كهذا البكاء من قبل. اصطك فكّاها واطبقت فخذيّها. تشلج جسدها من البكاء. ومن حين لآخر كانت تنشج نشيجاً حاداً. سال المخاط والدموع من وجهها إلى الأرض. ولم أقدر على الكلام ولا على الحركة. ولم أستطع فعل شيء سوى النظر إليها وهي تبكي .

لم يكن هنالك ما يمكنني فعله.

عندما استرخت كتفاها في النهاية ظننت أنها اكتفت من البكاء، لكنّ نشيجها أخذ يشتد حينذاك. بدأت أقنط. أردت أن أقفز وأجلس قريبها لكنني منعت نفسي، فهيئة الحماية التي كانت هي عليها أبانت أنها لا تريد ذلك. أخذت أنظر إليها ببلاهة. في آخر الأمر، تكلمت بصوت خفيض جداً حتى ظننت أنه سيتلاشي.

«في الصيف .».

كزرت قولها لكأنني أحمي الكلمات من الاختفاء «في الصيف .».

«في الصيف أخبرتك عن ماما. أتذكر؟»

قلت «أذكر».

«وعن أنني سألتها لماذا . . تزوّجت أبي؟»

«أجل».

«وقالت لأنّها رثت لحاله».

«أجل».

«لأنّها أشفقت على كلّ شيء يخضه».

«أجل». أومات براسي مّزات.

«لكن، أتعرف ماذا . .».

رفعت كوجيما رأسها لتتأمل إلي.

«أتعلم إذا لماذا لن أسامح ماما أبداً؟»

جفت الدموع على وجنتيها المثلثتين، واحمزت عيناها. ارتعش جفناها السفليان، العضوان الشاحبان الوحيدان في وجهها. نظرت إلي. التصقت خصل شعرها بوجنتيها، لكأها لم تبال بإبعادها.

«لا لأنها تركت أبي وحيداً، ولا حتى لأنها عرفت رجلاً آخر كأن ذلك كان أمراً طبيعياً . .».

أومات برأسي.

«بل لأنها لم تستمر».

أومات برأسي مرة أخرى.

«لأنها لم تستمر في الرثاء لحاله. لأنها كفت عن ذلك فحسب».

تركتني كوجيما وهبطت السلالم.

اختفت بلا تردد. عجزت عن الكلام، دع عنك منعها من الذهاب. سمعتُ صدى خطواتها يتردد في درج النجاة من الحريق، لكنه لم يلبث وقتاً طويلاً حتى اختفى. ثم سمعتُ وقع المطر الذي أحاط بي كأنه يملأ الصمت الذي خلفته وراءها. لم أكن متنبهاً لقا استحالت قطرات المطر وإبلاً. كان ذلك صوت مطر لا يكُل ولا يلين، صوت مرتعش كصرخة مخلوق مجهول، صوت بدا كأنه هوى من السماء المدلهمة ثم ارتفع من موضع عميق في البلدة.

## الفصل الثامن

في عطلة نهاية الأسبوع تلك جرحت ذراع ماما.

قالت إن يدها زلت وهي تغسل الصحون فسقطت سكين على ذراعها. كنت أقرأ في حجرتي وعدوت نازلاً إلى المطبخ لفا سمعت جلبة. وقفت ممسكةً مرفقها الأيسر بيمنها، وذراعها اليسرى ممدودةً نحو السقف. لفا رأني ضحكت.

قالت «الدم لا يتوقّف. سأهاتف سيارة إسعاف».

رفعت ذراعها أكثر، فسال الدم على إبطها. تَلَطَّخَ مُقَدِّمُ قميصها بالدم المتقطر من رُبنها المرفوع. عدوّ إلى الهاتف.

«انظر إلى هذا الدم كله!» قالت ماما كأنها كانت تظنُّ أنَّ الجرح مزحة. غضبت قليلاً وسألته عفاً ينبغي أن أفعل، فطلبت مني مساعدتها على ربط ذراعها بمنشفة. وإذا كنتُ أسرع في ربط ذراعها قالت لي؛ اقطع ذراعي، ثم ضحكت ساخرة. وبينما وقفنا هناك بانتظار الإسعاف فطنت إلى أنَّ ركبتي كانتا ترجفان.

قالت ماما «ستصل سيارة الإسعاف في دقائق. يا إلهي! لستُ أعرف كيف حدث هذا. لكنه جرح عميق. هذه هي فائدة الإسعاف عندما لا تستطيع الذهاب إلى المستشفى».

سألته «لماذا تضحكين؟»

«أضحك دائماً عندما أخاف».

«هل أنت خائفة؟»

«انظر إليّ. إنَّ هذا دمٌ كثير. مؤكَّد أنَّني خائفة. أعني أنَّني لا أتألم، لكن ماذا سيحدث باعتقادك إذا لم يتوقّف الدم؟»

فكرتُ قليلاً ثم قلت «ستموتين؟»

قالت وأومات برأسها «مؤكَّد».

سمعت صوت سيارة الإسعاف. فُرع جرس الباب، ثم دخل مسعفان وضفدا الجرح قبل أن يأخذا ماما. أردت الذهاب معها، لكنها قالت لي أن أنتظر هنا، فلن يستدعي الأمر سوى بضع عُزُر. أغلقوا الباب الأمامي وهم خارجون، لكنني بعد ثواني فتحت الباب مرة أخرى وصحت بها.

«ألا يحسن بي أن أهاتف أبي؟»

التفتت وقالت «لا تهتم»، ولوّحت مودعة.

اضطجعت على الأريكة قليلاً، ثم نهضت، وجلبت خرقة ودلواً من الحفام، ومسحت الدم على أرض المطبخ. لم يظل الأمر. كان هناك دم أكثر مما توقعت، لكنني مسحته مثلما أمسح أي وسخ. بدا أن ثيابها قد امتصت معظم الدم. كنت ما أزال منفعلاً ولم تُمل نفسي إلى القراءة، فلم يكن عندي خيار أفضل من الاستلقاء على الأريكة مرة أخرى.

عادت ماما إلى البيت بعد الرابعة بقليل.

قالت وهي تُريني الضمادة البيضاء حول ذراعها «لقد كان جرحي بليغاً».

سألتها «هل خاطوا موضع الجرح؟»

«أجل، خمس عُزُر»، نقرت الضمادة بأصبعها لتريني موضع العُزُر.

كان عليّ إعداد العشاء. طهوت لنفسي من قبل ولكن ليس لأحد آخر. قالت ماما لا بأس بطلب وجبة سريعة، لكنني أعددت طعاماً مما كان في المِتناول، ولم يكن شيئاً فخماً. طهوت أرزاً أبيض وحساء ميزو وقَلَوْتُ مما كان في الثلاجة. كانت ماما جالسة طوال الوقت تقول لي ما أفعل. ولما سَخُنْتُ ما فضل من طعامٍ بَائٍ وجلبته إلى المائدة بدا وجبة حقيقية.

«ما زال الوقت باكراً، لكن لنأكل». فتحت ماما التلفاز وأخذت تأكل، كالمعتاد،

مواجهة الشاشة. ورحت أشاهد أنا أيضاً دون قول شيء.

«إنني مسرورة لأنّ اليد التي جرحت لم تكن اليمنى»

«نعم».

زفرث زفيراً طويلاً، وقالت «كل ذلك التوثر أنهكني. أكره هذا. لا أطيق الوضع حينما تقع أحداث مفاجئة».

قلت «نعم».

«أحاول تهدئة نفسي، لكنني لا أستطيع. جسدي هو من يتحكم بي، وهذا ما لا أحتمله».

سألتها «أترغبين في أن تتحكمي بجسدك تحكمًا تامًا؟

قالت «أظن ذلك. لست أدري كيف أشرح الأمر، لكن نفسي تعيش صراعاً عنيفاً عندما تتدافع عواطفها وتضطرب. ولا شعور يزعجني كهذا الشعور»

جلست صامتاً، أكل الأرز والملفوف. صُغِب عليّ تحديد ما إذا كنت جائعاً، لكن كان هناك مئسغ في معدتي لمزيد من الطعام. ثم عند حد ما أصبح واضحاً أننا شبعنا. جرت العادة على أن يأخذ كل منا طبقه إلى المغسلة، إلا أنني في تلك الليلة كُومث كل الأطباق على المائدة وحملتها بنفسي. كثيراً ما كانت ماما تشرب الشاي بعد العشاء. لم أكن أرغب في شرب الشاي، لكنني غَلَيْثُ الماء وأعددت لها إبريقاً صغيراً من الشاي الذي كانت تحب.

برد الشاي بما يكفي فارتشفته، ثم قالت «هَبْ أُنِّي ووالدك تطلُّقنا، فماذا سيكون شعورك؟

«ستتطلُّقان»؟

«لم يتقرَّر شيء بعد ...».

لم يكن عندي ما أقول. لم يعد أبي يأتي إلى البيت، ولم أعد أكرث. أتذكر أنه، في الماضي، لَمَّا بدأ يقلل مجيئه إلى البيت ويثفق أن أراه، كان يقول إنه مشغول جداً، إلا أن ذلك كان منذ عهد بعيد. وهذا يذكرني باليوم الذي قلت فيه أمامه «منذ عهد بعيد»، فحدجني بنظرة مخيفة، وقال إنني ما زلت أصغر سناً من أن أتكلّم عن

الماضي هكذا.

كلّث ماما عن الحديث قليلاً ثم قالت «لست على يقين من شيء، أعلم أنّه أمر غريب أن تسأل أمّ ابنها عن شعوره نحو طلاق والديه . . لكن قلبي يحدثني بأنّ الحال سينحو هذا المنحى».

قلت «نعم».

جلسنا بصمت، وعيوننا على التلفاز. حدّثت إلى الشاشة المجنونة دون أن أفقه ما كان يدور فيها. سألت نفسي عمّا إذا كنت سأنتقل للعيش مع أبي إذا افترقا. لم أحتمل تخيل العيش معه، بيد أنّ الحال قد ينتهي بي إلى العيش معه. بدا لي أنّ حقيقة كونه هو والدي لها أهميّة تفوق جودة علاقتنا، وإن لم أره إلاّ لماماً وأكاد أقول إنّني لا أعرفه. وضعت ماما ذقنها على يدها وهي تشاهد التلفاز دون قول شيء. شخص ما كان يتأرجح، من رافعة، رأساً على عقب، ومن شعره كان يقطر حبراً أسود، فبدا شعره مثل فرشاة كتابة.

ضحكت ماما وقالت «ما كان يليق بي أن أثير الموضوع. معذرة، فلست على حال طيبة. ربّاه! ما الذي أفعله؟ يا لي من حمقاء».

قلت «لا بأس».

لم أكن أنوي إثارة موضوع عيني، إلاّ أنّني وجدتني أروي لها ما قاله الطبيب عن عيني وعن إمكانيّة علاجها بجراحة.

بعدما فرغث من كلامي صمتت ماما وقتاً قبل أن تسألني عمّا إذا كان هذا هو ما أريد. وقلت لها إنّني لم أكن على يقين.

حرّكت ماما كوب الشاي بين يديها وأخذت تديره ببطء. اتّجهت إلى المفصلة وصببت لنفسني شايّاً وجلبته إلى المائدة.

«ليس عليك أن تقرّر الآن. حسبك أن تعرف أنّه يمكن إجراء العمليّة. إنّها عمليّة دقيقة. خيّر لك أن تمنع التفكير في أمرها»

أوماث براسي ونظرت إلى البخار المتصاعد من كوبي منتظراً الشاي ليبرد قليلاً.

لم يردني شيء من كوجيما.

لم تكن هناك رسائل، ولا أحاديث، ولم تعد عيوننا تلتقي مهما نظرت إليها فلم تكن لتبادلني النظر. طوال الوقت كنت أفكر فيها. أخذت أبكر في المجيء قبل وصول الآخرين، وانتظر امتلاء الصف، ويدي داخل درج طاولتي الفارغ. وكم ألمني تذكر أنها كانت تترك لي الرسائل في هذا الموضع داخل الطاولة. فكرت في المرة الوحيدة عندما هاتفني في البيت. كان ذلك خلال الصيف، قلت لنفسي. ونحن الآن في الخريف.

في المدرسة كنا نعدّ الغداء للمهرجان الثقافي، وكان هناك أيضاً يوم الرياضة. وقد اكتنظت الأيام بأنشطة حرصت على اجتنابها، إلا أن الصبية وجدوا مئسراً من الوقت لضربي أو للهزء بي عندما لم أكن أقضي لهم حاجاتهم. ولم يسأموا هذه العادة. ولم يتغير الحال من أسبوع إلى آخر.

ولم يتغير موموز أيضاً. ظننت أنه سيثار مئي بسبب ما فعلت في المستشفى، لكنني لم ألحظ أي تغيير بأي حال. لم يبذ أن أحداً قد عرف بحديثي وإياه. سيظن المرء من مسلكه أنه نسي ما حدث، فقد كان لامبالياً إلى هذا الحد.

مراراً كبحث نفسي عن كتابة رسالة إلى كوجيما، لكنني في آخر الأمر كتبتها.

قلت إنني أود أن نلتقي ونتكلم، وإن إخفاقي في تفسير موضوع عيني سبب سوء فهم كبير. وإنني كنت أدرك أهمية عيني لها، ولذلك أردت إخبارها هي بالأمر قبل أي شخص آخر. وإنني اعتذر عن سوء تصرفي في شرح الموضوع، فأنا لم أشأ إيذاءها قط.

كوجيما لم ترد.

جربت أن أكتب إليها رسالة أخرى. كان مخيفاً لي أن أبدأ من حيث انتهيت في الرسالة الأولى، لأنها لم تزد قط، وكان الأكثر إخافة هو ترك الرسالة لها فيعثر عليها الآخرون. قلت لها إنني سأنتظرها عند درج النجاة من الحريق اليوم التالي في

الخامسة. سألها أن تأتي إن استطاعت. ساكون هناك. ألصقت الرسالة داخل درج طاولتها في الصباح. طوال اليوم ركزت على لغة جسدها. وفي اليوم التالي، قصدت موضع درج النجاة من الحريق في الخامسة وانتظرت ساعتين، لكنها لم تأت.

كان جسد كوجيما يزداد تحولاً وأنا أراها في الصف. ولم يكن مظهرها هذا بخاف على أحد. كأنها كفت عن الأكل تماماً. وكان الزملاء في الصف يغيظونها. لم يكونوا صريحين عادةً، لكن رأيهم فيها كان واضحاً. وكانوا يضحكون بخفة.

كتبت رسالة أخرى أقول فيها إننا لن نتكلم عن عيني، ويمكننا الحديث في أي شيء آخر، على جاري العادة. وإني أردت الحديث فحسب. وإنها لم تُرني بعد لوحة «الجنة». وإني كثيراً ما أفكر في ذلك اليوم.

ومثلما كنت أكتب إليها في الربيع الماضي، كتبت في هذه الرسالة أيضاً عفاً خطري بيالي، عن أي شيء، ذاكراً أحياناً الكتب التي كنت أقرأها. انتقيت كلماتي بحذر محاولاً إبهاجها. ولم أتلق ردّاً.

ذات يوم بين الحصص، دُفعت كوجيما بقوة وسقطت قرب طاولتي. وتصادم المعدن والخشب، فوقعت، مع كوجيما، كرايس وطاولته على الأرض.

ضحكت الفتيات وقهقهن لقا جئت كوجيما في مكانها بلا حراك. تحجرت مكاني. لم يكن بوسعي فعل شيء.

قالت فتاة من الفتيات «انهضي».

دفعت هذه الفتاة عوداً من أعواد مكنسة في ياقة قميص كوجيما وأخذت تنهز إبطيها لحثها على الوقوف. فاحت رائحة عفنة من كوجيما. برأس مثقل بدأت تنهض، وشعرها المجعد يغطي وجهها. جلست أنا هناك أنظر إليها. ولقا وقفت استطعت رؤية وجهها بين خصل شعرها. مضى وقت طويل لم أر فيه وجهها. حبست أنفاسي كأنما كنت أصلي ونظرت إليها. كانت وجنتاها مجوفتين، وقد اسودت بشرتها حول فمها، وابيضت شفتاها من الثقل. وفي الثواني القليلة التي كانت واقفة خلالها، قبل أن تبعدها الفتيات، نظرت إلي كوجيما بعينين لم أرهما من قبل. كوجيما. سمعني

أناديها، لكنها لم تُجب. كانت عيناها فارغتين. وكانت تبسم لشيء ورائي.

بعد أيام، تلقّيت رسالةً من كوجيما.

كنت قد كففتُ عن الكتابة إليها منذ أن رأيت تبسمها ذلك اليوم في الصف. وقد أبهجتني رسالتها. قرأت العبارة مرّات كثيرة.

قالت إنها ستنتظرني يوم السبت ذاك، الساعة الثالثة، في متنزه الحوت، حيث التقينا أول مرّة.

ما زلت أتذكّر رائحة الهواء في ذلك المساء الربيعي، وصلابة الإطارات التي جلسنا عليها، والشقوق في مجسم الحوت الإسمنتي، ورائحة الرطوبة، والترية السوداء. وأنا أرى نسخة خط يدها الأجرأ هذه، لم يسعني إلا أن أتذكّر وهن أول إشعار كتبه إلي. وكم هو مؤلم تذكره! شعرت بوحشة. وكنت كلّما دهمني هذا الشعور فعلت ما اعتدت فعله وهو قراءة رسائلها كلّها، ناشراً إيّاها على الطاولة. تلك الرسائل كانت تقول الكثير. قرأتها مراراً قبل أن أعيد الرزمة إلى حافظة القاموس.

في صباح السبت ذاك جاء أبي إلى البيت مرّة أخيرة. كان في غُظلة مدهة يوم واحد. عندما نزلت إلى المطبخ رأيته جالساً على الأريكة يشاهد التلفاز. ولما فطن إلى وجودي، قال أهلاً، ثم عاد إلى مشاهدة الشاشة. أخذ يتنقّل بين القنوات. كان لكلّ قناة نبرة مختلفة، ودرجة ارتفاع صوت مختلفة.

تناول ثلاثتنا الإفطار. أكلنا ما أعدته ماما دون التفوّه بكلمة. كانت ضمادتها ناصعة البياض، وبدت ذراعها المضفدة تمثيلاً ليس إلا، لكنني شهدت إصابتها وهي في أولها، ورأيت الدم. كان التلفاز يؤدّي عتاً مهفة الكلام، آلة تغنينا عن العمل مثل غشالة الأطباق، وتحزّرنّا من الاضطرار إلى الكلام. ذلك ما كنت أفكر فيه دائماً كلّما اجتمعنا.

كان أبي يقرأ الصحيفة. طواها نصفين ليسهل التحكّم فيها، ورَفَعها أمام وجهه. وقد غثيث نفسي من صوت طيّه الصحيفة ونشرها، وخلت أنني سأنقياً. حدّثني نفسي بنزع الصحيفة من يده وتمزيقها. كظمت غثياني وأنا أمضغ الطعام، وركّزت نظري على الصحيفة متوهماً تمزيقها صفحةً صفحة. ماذا سيفعل يا ثري؟ أجزم بأنّه

سيلكم وجهي دون تفكير. وما الضير؟ فلاسترسل في وهمي. تخيلت تمزيقها إلى مِرْقٍ صغيرة فلا يبقى منها شيء. لذا فرغت من أوهامي ابتلعت ما بقي في صحتي ووقفت. نظر أبي من وراء الصحيفة إلى مكاني. شكرت ماما على الإفطار وصعدت إلى حجرتي.

بدأت بواجب الرياضيات، لكنني لفا نالني التعب منه فتحت الكتاب الذي كنت أقرأه، وعندما سئمت من الكتاب عدت إلى واجب الرياضيات. شق علي التوفيق بين وجود أبي في البيت وتدويري للقاء كوجيما أخيراً في اليوم نفسه، فلم يهدأ لي بال.

أمضيت الصباح أتنقل من أمرٍ إلى آخر. بعد الغداء، سمعت أبي وهو يخرج من البيت. وبعد دقائق، نزلت إلى الطابق السفلي قاصداً الحمام ورأيت ماما تتجه إلى الباب وهي تستعد للخروج. قالت إنها ستعود في نحو الساعة لإعداد العشاء، ثم سألتني عما إذا كان لا يزعجني أن نأكل في وقت متأخر. كانت معدتي ممتلئة بطعام الغداء فقلت، لا مشكلة، ثم صعدت عائداً إلى حجرتي. ما إن سمعت الباب الأمامي يُغلق حتى أخرجت عضوي وطفقت أهزه. لم أفعل ذلك وأنا على الفراش، بل وأنا واقف عند الباب. وكان هذا أمراً جديداً علي. شددت الإمساك بعضوي أكثر من المعتاد. ابتلعتني صور غامضة ومريحة، وتعابير دافئة. ثم لفا شارفت على بلوغ غايتي لم تكن علبة المناديل بالقرب مني، فتلقيت مائي بيدي الأخرى. ولفا امتلأ كفي حتى تقطر المني من بين أصابعي شعرت بالراحة أخيراً. ذهبت لغسل يدي ثم عدت إلى غرفتي واستلقيت على فراشي وأكملت قراءة الكتاب، إلا أن عضوي بدأ يقوم مرّة أخرى. حاولت تناسيه لكن الحال كان فوق الاحتمال. لم يفدني جلوسي ساكناً. كأن دمي كله كان يُضخ في عضوي، وكان ذلك مؤلماً. كل ما بي من طاقة ومخاوف ورغبات وحاجات احتشد في عضوي. ورحت أدلكه إلى أن انتفخ وتصلب، ثم فكرت في كوجيما لأوّل مرّة.

كنت أفعل المُحال.

لم أفكر في كوجيما من قبل قط وأنا أستمني. لا لأتني أردت ذلك، بل لأتني لم أكن أستطيعه. لم أرده وكفى، فهي لا تنتمي إلى ذلك العالم.

بيد أنني الفيتني غارقاً في فيض من رغبات جامحة عجزت عن فهم طبيعتها .  
وعلى جهلي بسبب حدوث هذا الآن، لم أستطع إبعاد صورة كوجيما. كموج يعلو،  
ارتفعت صورتها أمامي، وهي تبسم. رأيثني أجلس قريباً على المقعد خارج متحف  
الفنون، فملت نحوها، ومصصت شفثيها. لحسث العرق من وجنتيها. كان طعمه  
لا يشبه أي طعم ذقت من قبل. خلعت عنها ثوبها المدرسي. ولما أصبحت عارية  
وضعتها في المغطس. غسلت شعرها وفركت جسدها بالصابون مزيلاً الأوساخ.  
ولما نظفت بشرتها ولففت ضغطت نهذيها بكفي، باعدت ما بين ساقيها وولجتها.  
استحوذت علي نزواتي وأخذ المشهد يتكشف في رأسي. لعقت كل ما استطعت لعقه  
من أعضائها. ثم مصصت شفثيها مرة أخرى. إلا أن وجهها تحول إلى وجه الفتاة  
التي رأيتها ذلك اليوم في الصف. لم تكن تنظر هي إلي. كانت عيناها المحاطتان  
بخصل شعرها الناعمة تنظران إلى مكان آخر. كنت أدفع عضوي بقوة متوهماً توغلي  
عميقاً. ومع سرعة القذف، عاد الوجه ليصبح وجه كوجيما. كان الوجه الذي رأيته،  
لما زالت النشوة، ممتلئاً ودافئاً، مرتبكاً قليلاً لكنه لطيف وينظر إلي. تلك هي كوجيما  
التي أريد. ولما انتهيت تلاشى اللطف والزفق. برد وجهها، وخمدت عيناها، وغارت  
وجنتاها. نظرت إلي وتبسمت. قالت «نحن صديقان، أليس كذلك؟» قالت لي إنها  
تحب عيني، وظلت تبسم. كان ذلك هو تبسمها نفسه منذ آخر مرة رأيتها فيها.

استويث جالساً واثكأث على الجدار في حال من الذهول. كان يوم سبت هادئاً  
وخالياً من الأحداث حتى ذلك الحين. زفرت وشهقت لتتنقى رثتي من الهواء الثقيل  
ثم استلقيت في مكاني. قزرت أنني أسوأ المخلوقات على وجه الكوكب، بل أقبحها.  
ماذا جنيت؟ ما الذي فعلته؟ هاج صدري واضطرب، وكان خلفي ثقب أسود ينفث.  
أغمضت عيني وانتظرت حتى يتلاشى هذا الشعور. سمعت رنين الهاتف، لكنني  
عجزت عن الحركة. لم أحاول حتى مسح المني. وما لبثت حتى استسلمت للنوم.

كنت أعدو إلى المتنزه. في الشارع، أضاءت الإشارة الحمراء بلا نهاية، وأنا أندفع  
قاطعاً الطريق كادت تصدمني سيارة لولا أن الحظ حالني. ضغط السائق المكابح  
بقوة. أخرج رأسه من النافذة ونعنتني بالمغفل. وبسبب ما كان عليه حالي، لم أدرك إلا  
آنذاك أنني كنت أعدو. لكنني لم أكن أصفي، ولم تكن حواشي حاضرة. كنت على

كوكب مختلف، بعيداً عن صوت السائق الذي سمعته. كآله لم يكن يخاطبني.

كانت السماء صافية ولا أثر فيها للسحب، لكنني سمعت هزيم الرعد الذي حملته الريح. عندما وصلت إلى متنزه الحوت، كانت كوجيما هناك. توقفت وانحنيت لأهذي من تصفد أنفاسي. مع أنني كنت أعرق وقلبي يخفق، لم أشعر بأني عدوت الطريق كله إلى هنا. بل كان يمكن إقناعي بأني لم أخرج من غرفتي. غير أنني كنت أقف قرب سور متنزه الحوت ورأيت كوجيما جالسة على الإطارات بثوبها المدرسي. شهقت شهيقاً طويلاً لم يهذي من روعي كثيراً، ثم مشيت نحوها متمهلاً وكنت أسأل نفسي عن سبب ارتدائها ثوبها المدرسي اليوم. كانت الأرض بيننا مسطحة تماماً، ولم أصدق أنني مشيت تلك الخطوات كلها حتى أصل إليها. شعرت كأني أمشي في مكاني ولا أتقدم، لكنني وجدتني واقفاً أمام كوجيما. كوجيما. تلفظت باسمها. بعد صمت، نظرت إلي كأن شيئاً قد خطر ببالها. بشفتين مطبقتين طرفت لي بعينها عامدة. كدت أسمع صوت تلاقي رموشها. نكست رأسها. كنت متنبهاً لأنفاسي الثقيلة، وجلست إلى جانبها.

قلت «قرأت رسالتي».

لم تتكلم كوجيما.

قلت «في ذلك اليوم ... وقع سوء فهم».

تصعدت أنفاسي وأنا أحاول الكلام. نظرت كوجيما إلى الأرض، غير راغبة في النظر إلي مرة أخرى. شعرت كأني نائم في غرفتي مع أنني كنت بقربها. استطعت تحريك أصابعي، لكن عضواً حيويًا في كان قد اختل توازنه. أغمضت عيني بقوة، وطرفتهما بقوة، محاولاً تنقية ما وراء عيني، لكنني لم ألق إلا بلادة عنيدة، كأن كل شق في رأسي قد حشي بقطن مبلل، لم يكن خفيفاً ولا ثقيلاً. كأن الضباب أخذ يغشى الفراغ الذي كان بيني وبين ما حولي. ولم أكن على يقين مما إذا كان هناك فراغ في الأصل. كأني كنت أحلم. أو كأني تحولت أنا كلي إلى عينيّن حولوين.

جلست قرب كوجيما دون أن أقول شيئاً، وحذقت إلى ركبتيها فحسب. مددت

يدي لأمنر الثلثي في تضاعيف تلورتها فوق ركبتها. أردت أن أعرف إذا كانت يدي قادرئين على الإحساس بما أرى. امتدّت أصابعي إلى حاشية تلورتها. ثم لمست يدها التي كانت فوق حجرها. رأيت أصابعي تمسّ بشرة يدها. لم تكن يدها دافئة ولا باردةً لكنها كانت هي يدها، يد كوجيما الحقيقية. ولم تستجب للفسي. جلست هناك وقد ارتاحت كلي على يدها وأخذت أنظر إلى حدائنها المئسّخ.

لاحظت شيئاً فرفعت ناظري. موموز كان يقف أمامنا.

لم يكن وحده. كان نينوميا إلى جواره وحولهما جمعٌ من وجوه أخرى عرفتها، وكانوا يبتسمون بخبت. في لحظة، عادت إلي رائحة القاعة الرياضية. كانت معهم أيضاً فتياتٌ من الصفّ أعرفهنّ. لم أعرف ماذا أفعل، فأخذت أحصي الوجوه. سبعة وجوه. ملامحهم لم تخبرني بشيء. ما الذي كانوا يفعلونه هنا؟

قال أحدهم «لا يمنعك وجودنا عن فعل ما تريد فعله». ركل ركبتني ملوثاً بنطالي الجينز بالطين. ضحكت فتاةً ضحكاً عالياً.

حدّقت عيني اليسرى إلى ركبتني التي زكّلت ولمست أصابعي بقعةً الطين. كان طيناً حقيقياً. أتى من زكل. لقد زكل الصبي ركبتني. حاولت استيعاب ذلك. لم أشعر بالألم. سمعت جلبة ضحك. قال نقرّ منهم «عجلاً وافعلوها!» طأطأت كوجيما برأسها.

قال نينوميا «يا للقباحة! هنا إذا تفعلان، أنتما الاثنين، ففعلتكما البذيئة».

هتفت الفتيات. ركل الصبية ركبتني مرةً أخرى. هذه المرة شعرت بالألم حقاً.

«هنا في هذا المكان؟»

قالت فتاة «فُغلةٌ مُستنكرة». وضحكت بعض الفتيات. وقف موموز بعيداً عن الجماعة عاقداً ذراعيه مثل نينوميا.

قال أحدهم «نعرف عنكما أنتما الاثنين. وتحسبان أنكما تكتمان سرّاً!»

لم أفهم ما الذي كانوا يقولونه.

«اسمع»، قال نينوميا وقرّص ليواجهني.

قريباً من موازاة البصر، بدا وجهه وجهاً آخر، على أنه كان وجهاً عرفتة حق المعرفة. لفاً كلاً صغيرين، اعتاد نطق اسمي بهائين الشفئين نفسيهما، لكنه كان ينطقه بلطف.

«لم أشهد أحداً يفعل ذلك في الحقيقة. أريدكما أن تُرياني».

سألته «لريك ماذا؟» كان صوتي شديد الوهن حتى إنني سألت نفسي عفاً إذا كنت قد تكلمت. لكنّ نينوميا كان قد سمعني.

«الجفّاع».

ضحكوا جميعاً، وقد أبهجهم الأمر وشغلهم.

شعرت بشيءٍ يكظم أنفاسي، وأعدت في عقلي ما قاله نينوميا. الجفّاع. الكلمة زادت خفق قلبي وأثقلت كاهلي. وثبّ فكري إلى الشعور الذي حُبِزْته آنفاً، إلى ما فعلته قبل خروجي من البيت. سمعت صوت لعابي وهو يتردّد في حلقي. جفّ لساني، وشعرت بحرارة أنفاسي. لماذا كانوا يقولون لي هذا الكلام؟ كيف عرفوا بوجودنا هنا؟ ماذا كانوا يريدون؟ ما علاقة مجيئي إلى هذا المكان بهم؟ لم أعرف أين أنظر ولا فيما أفكر. كان موموز واقفاً في الخلف، وينظر إليّ.

وقف نينوميا وضحك، وقال «عجباً لأمركما أنتما الاثنين. أتيتما هذه الفُعْلة في المدرسة أيضاً، أليس كذلك؟ عملٌ حسن».

هزّ رأسه كأنّ ذلك أعجبه حقاً.

«حسناً. أرني».

قلت بصوتٍ منخفض «لم نفعل هذه الفُعْلة .. قطعاً لم نفعلها».

لما قلت ذلك قهقه الجميع إلّا موموز. ما الذي أضحكهم؟ كان كلّ ما فعلته هو أنني أجبتهم. وقد قلت الحقيقة. شعرت بالعرق يسيل على ظهري وخاصرتي. تردّد صوت خفقان قلبي في طبلة أذني تردّداً اختلج له ما حولي واضطرب. كانت يدي على يد كوجيما. تنبّهت إلى أنني كنت أضغط يدها، لكنّ كوجيما لم تكن تستجيب.

سالت «لماذا أنتم هنا؟» وخرج صوتي خشناً.

«للسبب الذي أتى بك إلى هنا».

«هل أجبرتموها على كتابة الرسالة؟»

ضحك نينوميا، وقال «يمكنك قول ذلك. اسمع يا رجل. عندنا أشغال كثيرة، فلننهِ هذه الفرجة في الشارع».

رفس أحدهم فخذي رفساً قوياً حتى إن الزُفس الأنف لم يبذ إلا تربيث مُجب.

ذلّكث ساقِي، وقلت «لكننا لم نفعل هذه الفُعلة . . لم نفعلها البُثة».

قال نينوميا بتهكُم «الكلاب تفعلها هنا. أتحسب أنها تبالي؟ والأمر سيّان. أجزم أنّك إذا أقنعت نفسك فستتمكّن من فعلها. لن تعرف ما لم تجرّب. أليس كذلك؟»  
وضّحك.

«الوقت ينقضي. عندنا أشغال. أريدكما أن تتعجّلا. افعلما ما كنتما تفعلان فحسب. لا تخجلا».

ابتسم نينوميا تبشماً ملأ وجهه كلّهُ، وتلألأت بشرته وامتلات حيويّة وإثارة. كيف يمكن أن يكون هذا وجه إنسان؟ كانت شفتاه المبتهجتان مشدودتي الطرفين، وعيناه كأنهما عجلتان تدوران وتشعان بالضوء.

«أنتم . . أنتم مجانين!»

لقا سمع نينوميا ما قلتُ نظر إلى الآخرين وقهقهه.

«افعلها فحسب».

انتمر صبيّ بأمره ودفعني من كنفِي دفعاً. أفلتُ يد كوجيما، لكنني سرعان ما مددتُ يدي لأمسك بها مرّة أخرى. أضحكهم هذا.

«هيا يا رجل، أنا لا أعبت».

هزّزْتُ رأسي وظللتُ جالساً على الإطارات. أمسكتُ بيد كوجيما بقوة شديدة. ثم بقوة أشد. اندفعتُ عبر فراغٍ أمامي بين الصبية محاولاً الهرب، لكنهم أمسكوا بقميصي من الخلف وطرحوني على الأرض. وكنتُ ما أزال ممسكاً بيد كوجيما فوقعنا معاً. سألتها إن كانت بخير. شخّضتُ ببصرها. استوت جالسةً وأومات برأسها دون أن تنظر إليّ. جثونا على الأرض وقد أحاطوا بنا وسُورونا بنظراتهم.

«اللعة، فتاتك قدرة. تُشم رائحتها من الشارع. لستُ وحدي من يشمّها، أليس كذلك؟»

قالت فتاة «طالما فاحت منها تلك الرائحة». ثم وُطئت ظهر كوجيما بحذائها، وقالت «سحقاً، يبدو أنني أدوس براز كلب. يا لغلطتي!»

«لا تبتئسي، فهي تفوح منها رائحة براز الكلب على أية حال».

«نُفاية. ينبغي وضعها في كيسين اثنين».

أخذت الفتاة تدوس كوجيما، دافعةً إيّاها إلى الأمام. تماكنت كوجيما نفسها من السقوط مثكنةً بيديها. نظرتُ أنا إلى وجه الفتاة.

«الأحول والنفاية، يتناكحان عند شجرة».

ضحك الجميع.

لم تتحرّك كوجيما ولم أتحرّك أنا. وعلى وفرة الضوء في السماء وخلوها من الغيوم، اشتدّ دويّ الرعد وقصرت المدة بين دويّ وآخر.

سألت نفسي عما إذا كان ما يحدث الآن يحدث حقاً.

هل هذا يحدث حقاً؟ ما كنت أعرفه هو أنني أفقتُ من نومي في غرفتي، وخرجت من البيت على جناح السرعة، وعدوثُ طوال الطريق إلى هنا للقاء كوجيما. أتيت راكضاً، مثلما أفعل دوماً، كلّما أرادت لقائي. لماذا تطفّلوا علينا؟ ونحن لم نؤذ أحداً، وكوجيما وأنا لم نقترف خطأً بتاتاً، طوال هذه المدة. ثم يحدث لنا هذا. لم أبتغِ إلا لقاءها. وكلّ ما فعلته هو المجيء ومقابلتها. لماذا نُزفّس ونُداس؟ لماذا نحن في

## ثم بدأت أفكر.

لم يكن هذا بالصلح الذي اعتقدت بأنه يحدث بيني وبين كوجيما، وهي لم تُرد لقائي. تمكن نينوميا ورفاقه من اكتشاف رسائلنا فأكرهوا كوجيما على الكتابة إلي. كنت أنا المتسبب في ما يحدث لها. وقد أخطأت عندما كتبتُ إليها تلك الرسائل كلها.

مهما أطلت التفكير في ما كان يحدث لم تكن للكلمات في رأسي قوة. لم تتحرك كوجيما. ظننتُ أن قطرة مطرٍ سقطت على أنفي. رفعت بصري. لم يكن هنالك أثر لسحبٍ ممطرة، على أن السماء كانت متجهمة. وقد منح الضوء الواهن الهواء لوناً مختلفاً. كان لوناً سرياً، لوناً رأيته في مكانٍ ما وكدتُ أنساه كلياً، إلى أن أتت هذه اللحظة. تخلّى الهواء عن تخومه الباردة، وتحوّل إلى تياراتٍ دافئةٍ سميكةٍ لفت أجسامنا مثل الشاش. سمعنا هزيم الرعد من بعيد، لكنه كان يدنو.

قلتُ لنينوميا «سأفعل أي شيء، ودعها تذهب. أتوسّل إليك. كوجيما لم تُرد مقابلي. أنا من كتب إليها. أبعدها عن هذا. حتى إنها لم تكلمني. أردت فقط أن ..»

شيء ما سدّ حلقي.

ابتلعت ريقِي وكظمت أنفاسي، وانتظرتُ حتى هدأت أعصابي قبل أن أتكلّم. ثم قتلها.

«كله بسببي».

ضحك صبي، وقال «هراء. كلامك لا يطابق ما نعرفه»

«لكنني أقول الحق».

قال نينوميا عاقداً ذراغيه «اسمع، لا تهتمّ بهذا الكلام. عجل واخلع سروالك. قلتُ قولاً جذاً عندما قلتُ إننا في عجلةٍ من أمرنا».

قلت «اتركوها تذهب فحسب».

ضحك، وقال «ومع من ستفعل فعلتك؟»

«فقط دعها تذهب. أرجوك». ودون وعي مني، وضعت جبهتي على الأرض أمام نينوميا.

«هيا». كان صوته مُشوّشاً. برفق ركل رأسي بطرف حذائه. «لا أفقه هذه العواطف السخيفة. هل ستخلع بنطالك أم يساعدك أحدهم؟»

رفعت رأسي ونظرت إلى موموز عبر عدستي نظارتي المُسخّنين بالتراب. كنت جاثياً على ركبتَي. تلفّظت باسمه.

«موموز، أنت تعلم أن لا معنى لهذا كله. أعلم أنك تعرف. ولا يهم إذا حدث أو لم يحدث، أليس كذلك؟ أعلم أنك تفهم. أرجوك يا موموز»

صفع نينوميا رأسي. تدلّت نظارتي من أذني، التهبت وجنتي، وبعد لحظة، أحسست بمذاق الدم.

«اخرس. ما طلب أحد منك الكلام. اخلعوا بنطاله»

أخذت أركل وأرفس محاولاً منعهم، لكنهم قيّدوني وفكّوا حزامي. سمعت ضحك الفتيات. قلت لكوجيما اركضي. صحت بها مديراً رأسي لأنظر إليها «اذهبي إلى البيت». كانت جالسة هناك فحسب. صحت بها «اركضي! اركضي!» صحت بأعلى صوتي، لكنها بقيت جالسة هناك.

أسقطوا بنطالي وسحبوه، مقلوباً، من حذائي. ثم مزّقوا قميصي وتركوني بثوبي التحتي. نهاه نينوميا عن خلع حذائي لأنّ الفرجة ستكون أكثر مدعاةً للتسلية وأنا لابس حذائي. جُن جنون أول فتاة رأتني، وقالت «يا للبداءة!» ولما رأتني الفتيات الأخريات قهقهن مبتهجات. حاولت لبس ثيابي، لكنّ صبيّاً لملمها ووضعها على الحوت الإسمنتي. كان من المحال أن أصل إليها.

وقفت هناك فقط بلباسي التحتي وحذائي، محاطاً بأصواتهم التي أخذت تعلو

وتنخفض وهم يتحدثون علي كألني لست موجوداً. لم أحس بالبرودة ولا بالدفء،  
والهاني لون السماء المتدّرج.

قال نينوميا «حسناً يا أحول. والآن ساعد كوجيما».

لم أصدّق ما كنت أسمع.

ارتعش صوتي وأنا أقول «ما الذي تقوله؟ ماذا قلت؟»

«قلت اخلع ثياب كوجيما»، أجاب نينوميا بهدوء، ثم فتح فمه ورفع صوته، وقالها  
مرة أخرى، في أذني، ليتيقّن من فهمي. «اخلع ثيابها»

شعرت بحرارة تضجّ في أعضائي، وتصعد من صدري إلى حلقي .

دوى الرعد شاقاً الضوء، ورشّ المطر وطشّ. شكّت فتاة ابتلالها بالماء. وعلى غزارة  
المطر، سطعت الشمس أكثر من ذي قبل. لم تكن هناك سحب، فمن أين جاء المطر؟  
كانت قطراته ذهبية، قد أضاءتها الشمس، وهطلت في هيئة خطوط أخذت تضرب  
ظهر الحوت والإطارات وجُلدي.

قال نينوميا «إن لم تستطع إنجاز عملك فسننجزه لك. هيّا، إنها تمطر. أسرع».

لم أقل شيئاً.

سألني «أتظنّ أنّك إذا تلكأت سننسى الأمر برقمته؟ ثق بي، فأنا امرؤ ينشد الكمال.  
عليك أن تُنهي ما بدأت. أريد نتائج. أريدها الآن. أسمعني؟ لا خيار لك. افعل ما أقول.  
الآن».

قلت «لن أفعلها».

ضحك وقال «إذا لم تفعلها فغيرك سيفعلها. ولأنّك عارٍ في الأساس، يصعب  
تصديق أنّك لن تفعلها».

لزمّت الصمت.

لم تكفّ الفتيات عن إبداء استيانهنّ من المطر ولا عن إزعاج الفتية. قالت فتاة إنها

ضاقت ذرعاً بما يحدث. وقفت صامتاً وأصوات الفتيات تعلو. التفت نينوميا إليهن، وقال لهن إن باستطاعتهم الذهاب إن شئن. تذررت الفتيات قليلاً ثم غيّرن الموضوع. بدا أنهن كنّ باقيات.

قال نينوميا «افعلن ما يحلو لكنّ». أمر صبيّاً أن ينهض كوجيما. بلا تفكير، مدد يدي وتناولت حجراً من التربة قرب الإطارات. كان كبير الحجم، يحتاج إلى أن تحمله يدان. رفعته. كان أثقل من المتوقع. نظرت إلى الحجر بين يدي.

سألني نينوميا «ماذا تظنّ أنّك فاعل؟»

لم أجب. حدّقت إلى الحجر بين يدي حتى تضاعف حجمه.

كان نصف الحجر أسود بفعل الرطوبة، وذكّرني ذلك بالدم. وكان لقاعدته السوداء حافةٌ حادة. أمسكت بالنصف الجافّ ونظرت إلى الحافة الحادة.

فكرت في ما قاله لي موموز لما كان جالساً على المقعد خارج المستشفى والليل يهبط لم لا تفعل شيئاً إذا؟ لم لا أفعل شيئاً؟ إذا فعلت شيئاً فقد تتبدّل الأحوال. ربّما. سألت موموز لكن ألا تشعر بالذنب؟ كلاً. ولا حتى قليلاً. كان رده جاهزاً. قال جميعنا يفعل ما يستطيع فعله. هذا هو كلّ شيء. لا أكثر ولا أقل. ولا معنى لأفعالنا. قلت لكن كيف لا يكون لأفعالنا معنى؟ ابتسم موموز بطرفي عينيّه، وقال لا علاقة لما نفعل بالصواب والخطأ. فهكذا تجري الأمور. في نهاية المطاف لا يهمّ إلّا ما تفعله، وإذا كنت قادراً على إخافة الآخرين فاسحقهم واجبرهم على فعل ما يحلو لك. لا أريد إخافتك، ولا أريدك أن تخيفني. صحت به ليست الأمور بتلك السهولة! فضحك موموز وقال لأفعالنا هي ما يجعل الأرض تدور. وهذا ليس وهماً. إنّهُ الواقع، وما الواقع إلّا نظامٌ يسيّر وثابت يؤدّي وظيفته على أكمل وجه. إذا أردت أن تحمل هذا الحجر وتضرب به رأس نينوميا فلتفعل. اسمع. إنّهُ مُشوّش الفكر. إذا فعلتها الآن فستصرعه وينتهي أمره. حينها ستنجز المهمة. ستشعر بالرضا. ستنقذ كوجيما. وعندما يرى الآخرون ما فعلته سيولّون مدبرين. وكذلك سأفعل أنا. لكأنّ تفعل ما تشاء. من سيلومك؟ سيتعاطف الجميع معك، وسيدعونك بطلاً. أقول لك افعلها. لم لا تستطيع فعلها؟ ما الذي يمنعك؟

اشتدت غزارة المطر. ولم يتوقف دوي الرعد. ومن حين لآخر، انشق برق ساطع استطار في السماء المصطبغة بحمرة الذهب، ليضيء خيوط المطر المنسابة. تكونت بك في أنحاء الأرض. توهمت أنني أندفع نحو نينوميا وقد رفعت الحجر عالياً، لكن جسدي لم يتزحزح. ولم يكفني ذلك، فتوهمت، مرةً أخيرة، أنني أرميه بالحجر. لكنني لم أتحرّك. شهقت وزفرت. على قول موموز؛ إن كنت أستطيع فعل ما أريد فسأفعله، ولا علاقة لفعلي هذا بالصواب والخطأ، بل فقط بما إذا كنت أستطيع فعله أو لا أستطيع. ولم لا أستطيع؟ ألا يحسن بي أن أناضل وأكافح؟ ألا يحسن بي أن أركض نحو نينوميا بهذا الحجر؟ ما الذي يمنعني؟ عندي سلاح. لكن حيازتي سلاحاً لم تكن كافية. إذ كان علي استعماله. يا لك من أحمق! ما الذي يصعب عليك فهمه؟ سؤيت إمساكي بالحجر واستجمعت قواي. وعندئذ نهضت كوجيما وأمسكت بذراعي.

نظرت إليها.

ونظرت هي إلي ولم تقل شيئاً. سألت قطرات المطر على وجهها فالتمع حاجباها في الضوء. أفلتت ذراعي. ولم أستطع الكلام. رمقتها ووجدتني أسأل نفسي عن هينات النظر التي نظر بها الناس إلي. نظرات عابرة، نظرات اتهام، نظرات مهينة. غرباء أطلالوا النظر إلي، ولم يكن أمامي خيار إلا الاستسلام لنظراتهم. بيد أن ثقة أحوالاً أخرى عندما نظر إلي أناس بعين مُجبةً كمثل كوجيما لما قالت إنها تحب عيني، ونظرت إلى عيني وتشابكت أيدينا. كنت أدرك هذا. غير أن كوجيما التي كانت أمامي الآن لم تحمل عيناها أي عاطفة، وكأنا تنظران إلى العدم. ولما نظرت إليهما، أدركت ذلك.

تقدّمت كوجيما إلى الأمام ووقفت أمام نينوميا. تراجع هو إلى الخلف ولم يقل شيئاً. صوّت الصبية وصاحوا ثم توقّفوا. كان موموز مثكناً على الحوت وينظر نحونا، عقد ذراعيه مرةً أخرى ورفع ذقنه.

خلعت كوجيما حذاءها وجوربينها ووقفت على الأرض الموحلة حافية. ثم أدخلت أصابعها تحت ياقة قميصها وخلعت ربطة عنقها ولقّتها ووضعتها في جيب سترتها.

كانت حركاتها بطيئة إلى حد مؤلم. ثم خلعت سترتها ورمتها على الأرض قبل أن تفك أزرار قميصها بادئة من الأعلى. حلت ثلورتها. سقطت الثلورة على الأرض مشكلة دائرة داكنة الزرقة حول قدميها. غاصت حاشية ثلورتها في البركة عند قدميها، فأصبح لون الثلورة الداكن الزرقة أدكن. هفت بخلع قميصها الداخلي الأبيض وسروالها اللدن النسيج الذي كان داكن الزرقة كثلورتها، فخلعت السروال وألقته جانباً تاركة على جسدها قميصها الداخلي ولباسها التحتاني الأبيض فقط. وقد التصق النسيج بجلدتها بسبب المطر. سالت قطرات المطر على جسدها في أشكال متعرجة. لم يتكلم أحد. رفعت كوجيما قميصها الداخلي، وحزرت ذراعيها منه، ثم حزرت رأسها، وألقت بالقميص على الأرض أيضاً. كانت ضلوعها بارزة على جسدها الصغير. خلعت لباسها التحتاني. والآن أصبحت عارية تماماً. لم ينبس أحد بكلمة. لم أكن أسمع شيئاً سوى المطر وهو يهطل على كوجيما. انهمر الماء الذهبي على جسدها وعلى ثوبها المدرسي الفلّقى على الأرض. أضاء الضوء البرّك، فظهرت على مانها صورة الشمس حتى مع اشتداد المطر.

وقفت كوجيما أمام نينوميا.

تبشمت.

لم يتكلم أحد.

لم يفارقها التبشم، ودارت بجسدها العاري، ببطء، ووقفت لفا عادت إلى نينوميا. ثم مدت يديها، وشخصت ببصرها، وقهقهت. كانت قهقهة عنيفة، تتابعت كأمواج تعلو وتهبط. تصاعد الضحك من جسدها وهي تمشي نحو زملائها الآخرين، مستمتعة بكل خطوة. اتجهت كوجيما إلى الفتاة التي كانت تقف في أقصى اليسار، ثم وضعت كفها على وجنة الفتاة، وأنشأت تدليكها حتى صرخت الفتاة وولت هاربة. وركضت الفتيات الأخريات وراءها. كانت كوجيما ما تزال تبتمس لفا بسطت يدها لتلمس الصبية. في أول الأمر، حسبوا ذلك مُسلياً، لكنهم سرعان ما أخذوا يبعدون يدها عنهم ثم ولّوا هاربين هم أيضاً، مثل الفتيات، وزعقوا وانتشروا في الأنحاء متسابقين للخروج من المتنزه بأسرع ما يمكن. ولم يبق إلا نينوميا وموموز. ووقف أنا هناك

بثوبي التحتاني وحذائي حاملاً الحجر بيدي، تحت وابل المطر الذهبي الذي كان لا يني يشتد وقعه. كنت أفعل كل ما كان بوسعي فعله.

تلك كانت كوجيما التي لم أرها من قبل.

كان لتبشمها قوةٌ تُدقُّ عن الوصف، يبعد سنواتٌ ضوئيةٌ عن تبشمها لفا وقعت قرب طاولتي في المدرسة.

لم أستطع تصديق ما كان يحدث. استمر المطر يضرب جسد كوجيما العاري وكانت هي تضحك فحسب. كأن عقلها اختلط واضطرب، فتحت يديها ومذتها لتمش نينوميا. ظننت أنني سمعتها تقول هذا يهّم حقاً. كوجيما. الصوت الذي أحببت. تذكرت لفا قلت لها، في رسالة، إن لها صوتاً حسناً كصوت قلم ب، فالتفتت إلي وضحكت. قلت لها كوجيما، لماذا تقولين إن هذا يهّم؟ قالت مؤكّدة أنه يهّم. نحن لا نستسلم. ونحن من يسمح بحدوث ما يحدث لنا. ونعرف ما الصواب. إرادتنا سليمة. أمام هؤلاء الصبية الكثير ليتعلّموه. تكلمنا في هذا من قبل. سيتعلّمون يوماً ما. رن ضحك كوجيما في أذني. وقد أنساني ضحكها ما كانت تجري عليه الأمور. قالت الضعف يهّم. له مغزى حقيقي. صمّت ورغّزت على صوتها. ثم قالت ولكن أتعرف ماذا؟ إذا كان الضعف يهّم فذلك القوة. ولست أعني بذلك أن يستغل الضعفاء القوة لتبرير ضعفهم. نظرت إلى كوجيما، لكنني رأيت موموز يبتسم مخاطباً إياي إذا كان لأي شيء معنى فإن لكل شيء معنى، وإذا لم يكن لأي شيء معنى فلا معنى لكل شيء. ذلك ما قلته. الأمر سيّان. أنت، أنا، كلنا أحرار في تفسير العالم كيفما شئنا، وكلّ منا يراه رؤية تختلف عن رؤية الآخر. إن المسألة لهي بهذا اليسر. ولذلك ينبغي أن تكون قويّاً. عليك أن تتغلّب على الناس كي لا ينالوا منك بأرائهم وقواعدهم وأخلاقهم. صحت قائلاً لا. لا أقبل هذه القوة. لا أريد أن أنحط إلى الدرك الأسفل ولا أريد أن أدفع الآخرين إليه. لا تقل ذلك. قالت كوجيما بصوت هادئ نعرف الصواب والخطأ. لكننا نريد أن نرى، نريد برهاناً على أننا سنثاب ونجازي على آلامنا ومعاناتنا. وقد قلت لك إن هذا كلّ ما عاد يخضنا وحدنا. ولذلك عينك هي ما هي عليه من حال، ولذلك عندي علاماتي. لذلك التقينا. وللوقائع معنى دائماً. ولتجاوز الألم

والمعاناة معنى. قال موموز بصوت أجش ذلك صحيح، وعليك أن تدفع الآخرين إليه. نظرت إلى كوجيما نظرة خاطفة. كان الوجه وجهها، لكن الصوت كان صوت موموز. ثم عندما ظننت أنني سمعت صوت كوجيما مرة أخرى صار الوجه وجه موموز. قالت نحن لا نتكلم عن أوهام، بل عن واقع. لست بحاجة إلى الوهم، لست بحاجة إلى أي شيء. تحتاج إلى الحقيقة الساطعة فحسب. ضحك شق الهواء. لم أستطع تمييز الصوت. أكان صوت موموز؟ اختلط صوتاهما ووجهاهما حتى أنني ما استطعت تمييز أحدهما من الآخر. أغمضت عيني وهزرت رأسي.

ولما فتحت عيني كانت كوجيما ما زالت مستمرة في الضحك.

أخذ نينوميا يرمق كوجيما. لم يقل شيئاً. داعبت كوجيما خذه بيده اليمنى. من مكاني، تبينث كم كان متوتراً. ابتسمت كوجيما ورفعت يدها لترت رأسه. عبس وجهه عبوساً لم أره من قبل. وتوزد خذاه وتضرباً. شد قبضتيه غير قادر على الحركة. عندما فرغت كوجيما من نينوميا مشت إلى موموز. مشت كأنها تسير وهي نائمة، على أنها خطت كل خطوة بثبات.

عندما مدت يدها لتمش موموز تنبّه نينوميا وعادت إليه حواشه وركض ليمنعها. جذب شعرها من الخلف وألقى بها في بركة من البرك. استطعت سماع قطرات المطر تسوط ظهرها كأنها أحجار رخام. أوقعث الحجر من يدي وعدوث إليها. نظر نينوميا إلينا وقد احمر وجهه. أطلق موموز ذراعيه ومس شفتيه. أطالت حدقتاه النظر إلى كوجيما. بدا راضياً.

«أنتم! ماذا تفعلون؟»

شخص ما صاح بنا من خارج المتنزه. التفث. كانت امرأة في منتصف العمر تحمل بيدها مظلة وبالأخرى أكياس تسوق بلاستيكية، أخذت تراقبنا وترمقنا. ضرب نينوميا ذراع موموز ضرباً سريعاً قبل أن يولي هارباً. وركض موموز في الاتجاه الآخر.

أقبلت المرأة نحونا.

«ما الذي يحدث هنا؟»

كانت كوجيما منكبة على وجهها وظهرها عارٍ، وما زالت تضحك، لكنها بدت بلا حراك. أنهضتها لتستوي جالسة ثم حملت كل قطعة خلعتها من ثيابها المبتلة وغظيتها بها. بدأ المطر يخف وسطعت الشمس. لمع بياض جلد كوجيما في أشعة الشمس. ائكاث علي وضحك وعيناها تدمعان. انهمرت دموعها واختلطت بالطين والماء اللذين ملأ وجهها. قلت لها «أعلم كم تتألمين يا كوجيما! أعلم كم تتألمين! أعلم كم تتألمين!» وكان ذلك هو كل ما استطعت قوله. وبكيث أنا كذلك بكاء مريراً.

سألنا المرأة «أين ثيابكما؟ أنتما الاثنتين، أين ثيابكما؟» احتكت أكياسها بعضها ببعض وصرت صريراً.

«ابق هنا»، قالت المرأة وهزت كتفي.

بيد أنني لم أجر جواباً. مراراً ناديت باسم كوجيما وأنا أرثت ظهرها. لم تجبني. وما فتئت تبكي وتضحك. ملث نحوها وأحطت رأسها بذراعي. لم أستطع الكف عن البكاء. سألت دموعي على وجه كوجيما مختلطة بدموعها وبالمطر. وما بكيت حزناً، بل أحسب أنني بكيت لأنه لم يكن هناك مكان يؤويننا، ولأنه لم يكن لنا بُد من الاستمرار في العيش في هذه الدنيا. بكيت لأنه لم تكن هناك دنيا أخرى نختارها، وبكيث بسبب كل ما يحدث أمامنا وحولنا. ظللت أنادي باسم كوجيما. بعد حين، جاء كبار آخرون. أخذت كوجيما تنظر إلي إلى أن لفوا جسدها بدثار وحملوها بعيداً. كان ذلك آخر عهدي بها.

لم يكن لي صديقٌ مثلها قط. كانت صديقي الوحيد.

## الفصل التاسع

جلسْتُ وماما إلى مائدة المطبخ متقابلين، كهادتنا عندما نتناول العشاء. لم نتكلم. أعذت لي شايًا، ثم، كأنها أعادت التفكير، قامت مرَّة أخرى لتصب لنفسها الشاي أيضاً. ولغا لاحظت فراغ كوبي نهضت لتعدُّ إبريق شاي آخر. وحدث هذا مراراً.

مرَّ يومان على ما حدث في متنزه الحوت. لم أعد إلى المدرسة. جاء المعلمون والآباء إلى بيتنا أفواجا، لكن ماما أثبت السماح لهم بالدخول، وصرفتهم قائلة إنها ستذهب إلى المدرسة بنفسها وتقول ما يجب أن يُقال. لزمْتُ أنا حجرتي.

قالت ماما «إنَّ هذا يُشبه ما نشاهده في التلفاز، حين يلزم الابن غرفته، وتترك له أمه طعامه على صينية خارج الغرفة. وإذا كان يدرس للامتحان فإنها تُدخل الصينية إلى غرفته، وبخلاف ذلك فإنها تتركها في الخارج، أليس كذلك؟ ثم تعود بعد حين، وتجد الصحن خالياً من الأكل، فتحمل كل شيء إلى المطبخ. أتعرف ما أقصد؟ إنَّ هذه هي أوَّل مرَّة أقوم فيها بهذا العمل». وضحكت باضطراب. «لا أعرف ما أقول».

سألُّها «ماذا؟»

«حسناً، أنا مسرورة لأنني أستطيع فعل ذلك لك».

«أوه».

«ينبغي أن أزور المدرسة، لكنني، قبل ذلك، أريد أن أكلمك في شيء».

«حسناً».

«عندما تقع مثل هذه الأحداث يهوى الناس القيل والقال»

«أعرف».

«لكنك أنت الوحيد الذي سأصغي إليه»

«أعرف».

«لك أن تقول ما شئت. أو لا تقول شيئاً، إذا كان ذلك ما تريد».

رويت لها عن تعرضي للتنمر.

عن السنة الماضية وعن كل ما حدث قبل ذلك. ظننت أن حديثي سيستمر اليوم بطوله، لكنه لم يطل ما إن بدأت، ولم يذم سوى دقائق ما إن عبثت عن أفكاري وعواطفني بالكلمات. أراحت ماما وجنتها على كفها، وكانت تومئ برأسها من حين لآخر، مصغية إلى كل ما أقول.

بعد صمت طويل، قالت وهي تدير كوبها في يدها «أرى أنك لست بحاجة إلى الذهاب إلى المدرسة. لكن المدرسة الثانوية لن تكون على هذه الشاكلة. إذا كنت تريد الاستمرار في الذهاب إلى المدرسة فإننا سنجد وسيلة لتحقيق ذلك».

«حسناً».

قالت «لن يجبرك أحد على الذهاب إليها، ولست مضطراً إلى الذهاب».

«حسناً».

ابتسمت، وقالت «سننجز ذلك. أيّا كان ما توذ فعله. فلنناقشه فحسب».

ثم أخبرتها عن عيني. وأتني لا أعرف ما يجب أن أفعل. وأتني لا أعرف إذا ما كانت الجراحة ستنجح، وإذا كان حتى التفكير فيها يعني الاستسلام، فقد رويت لها عن كوجيما وأنها قالت لي إن عيني هما أنا، وإتني من دونهما ما كنت لأكون أنا، وكم كان لذلك شأن عظيم عندي، وكم كان أثيراً عندي. تريت وأنا أتكلّم، وكانت ماما تصغي فحسب. حتى إنني رويت لها عن أمي التي ولدتني وإن لم أكن متيقناً مما إذا كان يليق بي قول ذلك لها. قلت لها إن أمي كانت ذات عين حواء أيضاً. وعندي صورة لها حيث يمكنني تبين عينيها.

\*

أصغت ماما وهي تحدّق إلى أصابع يديها المبسوطين على المائدة. أخذت كوبها ونهضت لتصبّ مزيداً من الشاي. سمعت صوت تدفق الماء في الإبريق، ثم صوت

طقطقة الموقد. بعد حين، بدأ الماء يغلي، وقد أطلنا الإنصات إلى صوته كأنه غنى لنا شيئاً.

قالت «لا أظن أنني أبلغتك بهذا من قبل، لكنني أعرفها، أعرف أمك».

سألها «أكنتما صديقين»؟

قالت وكانت في المطبخ «ليس تماماً، لكنني أعرفها. لم أكن على يقين من أنك تتذكر هيتها، لكنني حزرْتُ أنك تعرف، أن عينيها كانتا كعينيك، من صورة أو ما شابه. لذلك عندما أترث موضوع عينيك لم أعرف ما أقول. أعرف أنك ربما تكون قد ربطت الأمر بأمك، وأنه ليس من شأني أن أقول شيئاً. وأكثر من ذلك، لطالما كان الوضع طبيعياً لي، فلا ضير في أن تكون عينك حواء».

صمتنا حيناً من الوقت.

قالت وهي تنظر إليّ «أتعرف ماذا؟ أظن أنه يحسن بك أن تمضي في إجراء العملية».

نظرْتُ إليها.

«الأمر عائد إليك. إلا أنني ما زلت أعتقد أنه يحسن بك إجراؤها. العينان تبقى عينيْن. لن تخسر شيئاً. ما ينبغي أن يبقى سيبقى وما لا ينبغي أن يبقى سيزول».

«أجل».

سألني وهي تهتم بالجلوس «هل ستطول إقامتك في المستشفى»؟

«قالوا إنني لصغر سني لن أبيت إلا ليلة واحدة في المستشفى».

ضحكت، وقالت «ماذا، أهذا هو كل شيء؟ ظننت أن الأمر أعقد من ذلك، وأكثر إثارة».

«أجل، ربما». ضحكت وضحكت ماما.

قالت بحزم «حسناً، لا تقلق بشأن التكلفة. إذا كنت ستجري العملية فأحرى بك أن

تجد أفضل طبيب في البلاد».

قلت «قال الطبيب إن الأطباء الشباب يجرون هذه الجراحة دائماً».

«أجد ما تقول»؟

«قال إن أي طبيب يمكنه إجراؤها».

عبست، وقالت «لكن ليس لذلك علاقة بالتكلفة، أليس كذلك؟ إننا نتكلم عن جراحة عين. ينبغي أن تكون مكلفة».

«قال إنها تكلف ١٥٠٠٠ ين».

سألت ماما «أهذا كل شيء؟ ١٥٠٠٠؟»

«ها هو ذا!»

لما رأي الطبيب رفع يده قرب وجهه مُسَلِّماً وتبشّم. انحنيت وماما ردّا على سلامه. كان أصيل ذلك اليوم مشمساً. اكتظت الردهة كالعادة، وقد علق ما علق بها من روائح لا يشفها المرء إلا في المستشفيات. انحنت ماما مرّة أخرى شاكرة للطبيب استقباله لنا على انشغاله وضيق وقته، وسألته عن العمليّة. همست قائلاً لها إنه ليس هو من سيُجريها.

قالت «أوه»، واستخيت وتحيرت فانحنت مرّة أخرى، معذرة، هذه المرّة. ضحك الطبيب، وقال أن لا بأس ولا حرج عليها.

«هو صديق لطيف، وطبيب حاذق أيضاً. صدّقي أو لا تصدّقي، إنه مختصّ بالخول. كثير من المرضى يتوافدون إليه هنا».

انحنت ماما مرّة أخرى، وقالت «نشكر لك تعريفنا به»

ضحك الطبيب، وقال لا بأس ولا كلفة.

«خير لك أن تجربها وأنت في مقتبل العمر. لا وقت أفضل من هذا الوقت».

تبسم، وأومأنا برأسينا موافقين.

تحدثنا قليلاً. ممزضة كانت تنادي باسم مريض في مكبر الصوت مراراً وتكراراً. وجانباً وقف معاونو الممرضات وهم يتبادلون أطراف الحديث. وكانت هناك ممرضات يُقذّن كبار السن بالقرب منا بخطوات حذرة. كنا نراقب المشهد، لكن عقلي كان في مكان آخر. بعد حين، نادوا باسمي. ذهبت ماما إلى طاولة الاستقبال لتعلاء أوراق بيانات وسواها مما يحتاج إليه الطبيب للجراحة.

سألني الطبيب «هلاً تمشيننا قليلاً؟»

قلت لماما إنني سأخرج مع الطبيب.

سألت الطبيب ونحن نتمشى «أليس عندك مرضى تعالينهم؟»

قال وهو يصدّ ثناؤبه «ليس في أصائل الأربعاء». تمطى كأنه استيقظ من نومه تَوّاً. «هل سيخضعونك لتخدير موضعي؟»

«لا، سيكون تخديراً كلياً».

ابتسم، وقال «هل أنت خائف؟»

ضحكت، وقلت «قليلاً».

قال ولم يردّ ثناؤبه هذه المرّة «بلى، لا أومك. الطقس دافئ اليوم، بالنظر إلى برودته طوال الأسبوع».

كان يوماً مشرقاً من أيام كانون الأول، يوماً يسيراً سهلاً توافقت فيه دقائق الساعة وتساورت. جلسنا على مقعد ورحنا نراقب الناس. امتلأ المكان بأصوات شتى. أجراس دزاجات. أطفال يبكون. صوت آلة حفر من بعيد. وقريباً منا شذت الطيور وزقزقت. لم تكن الريح شديدة، لكنها لم تتوقف. صوتها ملأ كل شيء حولنا، واستكن بين الأشجار.

سمعتني أقول كأن الكلمات قفزت من فمي قفزاً «إنني أجهل حتى سبب وجودي هنا، ولا علم لي إن كان ما أفعله صائباً».

قال الطبيب «لا بأس». ثم جلسنا هناك فحسب.

قلت كأنني أحدث نفسي «لماذا تُجزي لي هذه العملية»؟

«لأن عينك حواء. هل تحتاج إلى سبب آخر»؟

بقيت صامتاً.

«يتغير الناس دوماً. انظر إلى أنفك. أتذكر كيف انتفخ؟ وها هو الآن في حال

حسنة. وهذه العملية لا تختلف عن ذلك. أتعلم ما أعني»؟

أسند الطبيب ظهره إلى المقعد ووضع يديه على رأسه، وحزك عنقه يمنة ويسرة.

ضحك، وقال «ما زلت صغير السن. أمامك حياة كاملة. إذا نجحت العملية فستألف

عينك الجديدة بسرعة. حتى إنك لن تتذكر ما كانت عليه من حال».

سألته «أتظن ذلك؟ أتظن أنني سأنسى حقاً»؟

قال «لا ريب عندي ذلك. حتى إنك لن تتذكر أنك نسيت الأمر. بخلاف آخرين».

ثم نقر أنفه بسبأبته وضحك.

قال «عود طعام».

وضحكنا معاً.

شممت رائحة مظهرٍ وتنبّهت لأغطية سرير المستشفى البيضاء. عاد الإحساس إلى

يديّ وقدمي. انتهت العملية وكان التخدير يتلاشى. سألني صوتٌ عن حالي، فالتفتُ

ورأيت ماما. بدت قلقة. مسست وجهي ووجدت قطعة شايش كبيرة على عيني

اليمنى، وشعرتُ بمقلتي تدور تحت طيّات الشاش. أحسستُ بلسعٍ طفيف، ولم يكن

شيئاً يستحق وصفه بالمؤلم.

قالت ماما «ستبيت الليلة هنا. سأخذك إلى البيت في الصباح. اتفقنا»؟ كان رأسي

ما يزال مُشوّشاً. حاولت أن أومئ برأسي دون أن أستقيم جالساً.

بعد وقت قصير، جاء طبيب العيون ليسألني إن كنت أتألم. قلت له إنني بخير. ضغط الضمادة على عيني بإبهامي، ثم أخبرني بما سيعقب العملية. قال إنها كانت ناجحة، ودلني على مزارع استعمال قطور العين وعلى ميعاد العلاج الطبيعي. وأوضح لي بأن الأمر قد يطول قبل أن تنمو عضلات عيني، وينبغي أن أخضع لفحص منتظم. أومأت برأسي وأنا مشوش الدهن، ثم سرعان ما غططت في النوم.

في اليوم التالي، جاءت ماما إلى المستشفى وقت الغداء لاصطحابي. انتظرتها لتنتهي أوراق خروجي من المستشفى، ثم انصرفنا. أشرقت الشمس في الخارج، وانتشرت زرقاء السماء الصافية في كل الأنحاء. ظننت أنني سأكون على ما يرام بعيني اليسرى وحدها، فلطالما كانت هي العين السليمة، بيد أنني أليث مشقة في المشي. رثما بسبب الضمادة. لم أبادل وماما الكلام. وفي منتصف الطريق إلى البيت، أدركت هي أنها نسيت بطاقة التأمين في المستشفى فأشارت علي بانتظارها ريثما تعود وتجلبها.

وقفت في منتصف الطريق المحفوف بالأشجار.

أغمضت عيني كلتيهما وأبعدت الضمادة عن عيني اليمنى، لبست نظارتي، وفتحت عيني ببطء.

ما رأيته أمامي كان شيئاً لم أحلم به من قبل قط.

في هواء كانون الأول البارد، كل أوراق الأشجار تلالأت في السماء، آلاف تتبعها آلاف، وغمرت خيوط الشمس الذهبية. كل ورقة امتلأت بنورها الخاض، وانسكب النور كله علي بلا نهاية. تنسجت الهواء واستسلمت لفيض النور. كأن يدي كائن هائل مظن المسافة بين ثانية وأخرى. نسيث أن أتنفس، نسيث أن أطرف بعيني، وتركت نفسي تغوص في لحاء الأشجار العطري الأسود. شعرث بلحائها يمش أرق أعضاءي. بأطراف أصابعي، أمسكت بقطرات الضوء المتساقطة من خلل الفجوات بين الأوراق التي ترثمت فرحاً، بل إنني دخلت بينها. كان الوقت نهاراً، لكن الشمس استترت عن العيون. وكل شيء لمع عفواً من تلقاء نفسه. فغرث فمي مشدوهاً وهزئت رأسي عاجزاً عن تصديق إن كان ما أرى حقيقة. انحنيت والتقطت ورقة شجر وعائنتها. لم

أشعر، من قبل، بثقلها ذاك، ولم أخبر أيضاً برودتها تلك، وكان شكلها محدداً واضحاً. ترقرقت عيناى وأنا أرى الدنيا أمامى وهى تتكشف فى غلالة الدموع، وتنفلق وتنشق بلا توقف، وتنبعث كزفة أخرى.

كل شيء اكتسب حسناً وجمالاً. عند طرف الشارع، الشارع الذي مشيت فيه مزارب أكثر من أن أحصيها، رأيت الطرف الآخر، أول مزة، يلمع بياضاً. استوعبته. وبين دموعى، رأيت الدنيا واضحة جلية. وأصبح لها عمق. وجانب آخر. شخصت ببصري مجاهداً لأرى الدنيا كلها. كل ما استطعت رؤيته كان جميلاً. بكيث وبكيث وأنا واقف هناك مُحاطاً بذلك الجمال، لكنني، أيضاً، لم أكن واقفاً فى أي مكان. وقد سمعت صوت دموعى. كل شيء اكتسب حسناً وجمالاً. وما همني أن يكون هناك من أشاطره الأمر وأخبره به. الجمال فحسب.

Telegram:@mbooks90

[1] كوجيما تُخطئ فى تسمية المرض، وهو داء النمل، (المترجمة).

[2] هنا يوجد تناقض فى نص الترجمة الإنكليزية للرواية بين جلوس السارد ووقوفه.. وليس واضحاً إذا كان التناقض سهواً أو مقصوداً فى النص الأصلي.. نفهم أن السارد هنا واقف.. سيظهر فى الصفحة التالية لهذه الصفحة أن السارد «جالس هناك بصمت»، ونحن نعرف أنه كان واقفاً ولم يجلس.. وبعد بضع صفحات يعود السارد ويقول: «فوقفت هناك أنظر إلى ركبتى موموز»، (المترجمة).